كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

قراءة بلاغية

في مرثية البحتري للخليفة المتوكل
في ضوء نظرية النظم

إعداد

د / عصام عبد الحافظ عبد العال

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد الثاني والثلاثون – الجزء الثاني ٢٠١٣م)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على إمام المتقين ، وقدوة المحققين ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين .

وبعد ،،،

هذه قراءة بلاغية تتناول قصيدة البحتري [1] في رثاء الخليفة المتوكل [2] تناولاً بلاغياً في ضوء نظرية النظم ، واستهل بحثي بتنبيهين:ـ

أولهما : – أنني لم أقصد في بحثي هذا الوقوف على التحليل البلاغي

---

(1) البحتري ، قال ابن الأهدل : نسبة إلى بحتر جد من أجداده ، واسمه : الوليد بن عبيد ، أخذ عن أبي تمام الطائي ، ومدح المتوكل ، ومن بعده . . . ولد بمنبج بين حلب ، والفرات ورحل إلى العراق ، فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي ، وتوفي بمنبج . له كتاب الحماسة على مثال حماسة أبي تمام ، وكان أقام ببغداد دهراً ، ثم رجع إلى الشام... وكانت ولادته سنة ست ، أو سبع ، وقيل : خمس ، وقيل : اثنتين ، وقيل : إحدى ومائتين ، والأول أصح ، وتوفي سنة أربع ، وقيل : خمس ، وقيل : ثلاث وثمانين ومائتين والأول أصح ، انتهى ما ذكره ابن خلكان ملخصاً وفيها ، والصحيح أنه في التي قبلها ، كما جزم بها ابن الأهدل ، وقدمه ابن خلكان ، فقال : توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ، وقيل : ست وسبعين ومائتين (انظر : شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي(٢/ ١٨٧) ، دار النشر: دار الكتب العلمية (بدون تاريخ) .

(٢) جعفر (المتوكل على الله) بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة ٢٠٦ هـ ، وتولى الخلافة بعد موت الخليفة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، واستمر خليفة إلى أن قتل على يد جماعة من الأتراك سنة ٢٤٧ هـ (الأعلام للزركلي، ٢ / ١٢٧، الناشر : دار العلم للملايين بيروت ـ لبنان ط٢ : ١٩٩٧م .

الجزئي لأبيات القصيدة ، بقدرماعنيت الوقوف على الشاعر من منظور شعره ، وإبراز سمت بيانه ، ومدى قدرته على تقريب المعاني البعيدة للمتلقي ، سواء بالألفاظ الحقيقية ، أو التعبيرات المجازية ، ومدى قدرته على انتخابه لألفاظه ، ومشاكلة تلك الألفاظ للمعاني التي يريد أن يبثها في نفوس المتلقين ؛ للوقوف من خلالها على نفسيته ، وأبعاد شخصيته ، تلك الشخصية التي استهوتني كثيراً منذ ساعات الدرس ، وأنا في مرحلة الدراسات العليا بعدما قرأت ما قاله عنه شيخ البلاغيين واصفاً شعره من حيث قدرته على تقريب المعاني البعيدة الغريبة : "وإنك لا تكاد تجد شاعراً يعطيك في المعانى الدقيقة من التسهيل ، والتقريب ، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ما يعطى البحتري ، ويبلغ في هذا مبلغه ، فإنه ليروض لك المهر الأرن رياضه الماهر ، حتى يعنق من تحتك اعناق القارح المذلل ، وينزع من شماس الصعب الجامع ، حتى يلين لك لين المنقاد المطيع "[1]

آخرهما :- أن قولي: (قراءة بلاغية) ؛ احترازاً ـ بدءاً ـ من أن تكون هناك دراسات أدبية ، أو نقدية تناولت هذه القصيدة ، أو استشهدت بها للوقوف على الملامح الفنية لشخصية البحتري ؛ خاصة أن هذه القصيدة تُعدُّ من عيون القصائد العربية ، وقد ذكر الحصري في كتابه زهر الآداب :" أن أبا العباس ثعلب كان يقول في هذه القصيدة : " ما قيلت هاشمية أحسن منها ، وقد صرّح فيها تصريحَ مَنْ

(١) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر ، ص ١٤٦ ، ت / محمود محمد شاكر ، الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، ط١ : ١٣١٢ هـ / ١٩٩١م

أذهلته المصائبُ عن تخوّف العواقب ." [١]

ويُعدُّ البحتري من أشعر شعراء العصر العباسي ، وأشهرهم ، بل له مكانة بين شعراء العربية على الإطلاق ، وذلك لأنه كان شاعر فطرة فياضة ، وطبع مستجيب ، وذوق ارتضع أفاويق الجمال ، وتغذى بعصارات صافية من عبارات الحياة الخالية من الغموض ، فجاء به نبعًا من الحسن ، ورحيقًا من الجمال ، وفيضًا من الروعة ، جعلته الإنسانية تراثًا تتباهى به ، ولحنًا تردده ، وموسيقى تستريح إلى تكرارها [٢] .

كما أنه يُعدُّ أحد الثلاثة الذين ذاع صيتهم في كل زمان ، ومكان ، غير أنه كان أعمق من صاحبيه ـ أبي تمام ، والمتنبي ـ شهرةً ، وأكثرهم ذيوعًا ؛ بما اتسم به من وضوح المعاني ، وقدرته على الوصول إلى أعماق القلوب من النظرة الأولى ، ولا كان كذلك أبو تمام ، والمتنبي ، فالأول مغرق في الغموض ، والالتواء ، والثاني مولع بمخالفة أهواء الناس[٣]

ويكفيه ما قاله أبوعلاء المعري عنه في موازنته بين الثلاثة ، حينما سئل أي الثلاثة أشهر ؟ أبو تمام ، أوالبحتري ، أوالمتنبي ؟ فأجاب : المتنبي ، وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحتري ، وسئل البحتري عن نفسه ، وعن أبي تمام ، فقال :

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب المؤلف : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (٢٠٥/١) ، ت : أ. د / يوسف على طويل ، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ط١ : ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، للدكتور شوقي ضيف ،ص ٢٧٤ ، ط : دار المعارف ١٩٧٧م ..

(٣) انظر : نظرات أدبية ، د / محمد رجب الفيومي ٤ / ٤٢ ، ط : زهران القاهرة ١٩٧١م .

هو أغوص على المعاني ، وأنا أقوم بعمود الشعر [١] .

وتتجلى شاعريته الفذة في أنه استطاع أن يجمع في شعره بين أسلوبه البدوي الرصين ، وبين مظاهر الحضارة العباسية ؛ فهو شاعر اللطف ، والرقة ، واللين ، مع عدم خروجه عن المتانة في السبك ، والجودة في الأسلوب ، ولكلامه رنين ، ولألفاظه انسياب كانسياب الحرير في سلامة ، وخفة ، ورشاقة ، ويكفيه ما قال عنه ابن الأثير: " أنه أراد أن يشعر فغنى "[٢] .

ولقد جمع البحتري في شعره . كما يقول الدكتور طه حسين . :" أمرين ظاهرين أولهما : هذه المتانة التي استطاع البحتري أن يجعلها في الألفاظ ، ويرى أن هذه الألفاظ تملأ الفم ، دون أن يضيق بها ، وتقرع السمع ، دون أن تؤذيه ، فهي جزلة رقيقة في وقت واحد ، والأمر الثاني الذي أكسبه الجمال في شعره : ما عنى به من بعض الألوان البديعية في غير تكلف ، ولا استكراه . [٣]

ولا شك أن نشأته ، واختلاطه بعرب البادية له أكبر الأثر في تكوين شخصيته ، فحمل من الصحراء الألفاظ الرصينة ، وأصالة التركيب ، كما أن اتصاله بكثير من علماء عصره كان له الأثر . أيضًا . في اقتباسه اللغة ، وانقيادها له ؛ مما ميزه بقوة الصياغة، والقدرة الفائقة على اختيار الألفاظ ، وملاءمتها للمعنى

(١) انظر : الموازنة ، للآمدي ،ت : الشيخ / محمد محي الدين ص ١٥ ط : دار السعادة القاهرة .

(٢) انظر : المثل الثائر ، لابن الأثير ٢ / ٢٢٧ ، ت / أحمد الحوفى – د/ بدوى طبانة ، طبعة نهضة مصر – القاهرة – ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٩ م.

(٣) انظر : من حديث الشعر والنثر ، للدكتور طه حسين ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ط : دار المعارف القاهرة.

المراد مع اعتماده على الخيال الخصب ، والموسيقى المعبرة التي تتفاعل مع الغرض المروم تفاعلاً واضحاً .

فهذه الملاءمة ، والمشاكلة بين الألفاظ ، والمعانى ، مع حرصه على أن يكون شعره سلسًا ، رائع الديباجة ، جميل التصوير ، ليس به تعقيد ، ولا تكلف ، خير ما يمثلها ، ويكون شاهدًا عليها ، تلك القصيدة التي بين أيدينا ، والتي قالها في رثاء الخليفة المتوكل ، حيث يقول :

١ــ مَحَلٌّ على القَاطُولِ أخْلَقَ داثِرُهْ وَعادتْ صرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ

٢ . كأنّ الصّبا توفي نُذُوراًإذاانبرَتْ تُرَاوِحُهُ أذْيَالُهَا، وَتُبَاكِرُهْ

٣ــ وَرُبّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمّ عَهْدُهُ، تَرِقٌّ حَوَاشِيهِ،وَيُونِقُ نَاضِرُهْ

٤ــ تَغَيّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيّ وأُنْسُهُ، وَقُوّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ

٥ــ تَحَمّلْ عَنْهُ سَاكِنُوهُ، فُجَاءَةً فَعَادَتْ سَوَاءً دُورُهُ، وَمَقَابِرُهْ

٦ . إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أجَدّ لَنَا الأسى، وَقَد كَانَ قَبلَ اليَوْمِ يُبهَجُ زَائِرُهْ

٧ . وَلم أنسَ وَحشَ القصرِ،إذريعَ سرْبُهُ وإذْ ذُعِرَتْ أطلاَؤهُ وَجآذِرُهْ

٨ . وإذْ صِيحَ فيهِ بالرّحِيلِ، فهُتّكَتْ عَلى عَجلٍ أسْتَارُهُ وَسَتَائِرُهْ

٩ . وَوَحْشَتُهُ ،حَتّى كأنْ لَم يُقِمْ بِهِ أنيسٌ،وَلمْ تَحْسُنْ لعينٍ مَنَاظِرُهْ

١٠ــ كأَن لمْ تَبِتْ فيهِ الخِلاَفَةُ طَلْقَةً بَشَاشَتُهُا،والمُلكُ يُشرِقُ زَاهِرُهْ

١١ــ وَلَمْ تَجْمعِ الدّنْيَا إلَيهِ بَهَاءَهَا، وَبَهجَتَها، والعيشُ غَضٌّ مكاسِرُهْ

١٢ــ فأينَ الحِجابُ الصّعبُ، حَيثُ تَمَنّعَتْ بهَيْبَتِها أبْوَابُهُ ومقاصره

١٤ــ وأينَ عَمِيدُ النّاسِ في كلّ نَوْبَةٍ تَنُوبُ ،وَناهي الدّهرِ فيهِمْ وآمِرُه

١٥ــ تَخَفّى لَهُ مُغْتالُهُ، تَحتَ غِرّةٍ، وَأوْلى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجاهِرُهْ

١٦ــ فمَا قَاتَلَتْ عَنهُ المَنَايَا جُنُودُهُ، وَلاَ دَافَعَتْ أمْلاَكُهُ وَذَخَائِرُهْ

١٧ــ وَلاَ نَصَرَ المُعتَزَّ مَنْ كَانَ يُرْتَجَى لَهُ،وَعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزّ ناصِرُهْ

١٨ــ تَعَرّضَ ريْبَ الدهر من دونِ فتحهِ، وَغُيّبَ عَنهُ فِي خُرَاسَانَ، طاهِرُهْ

١٩ــ وَلَوْ عَاشَ مَيْتٌ، أوْ تَقَرّبَ نَازِحٌ، لَدَارَتْ مِنَ المَكْرُوهِ ثَمّ دَوَائِرُهْ

٢٠ــ وَلَوْ لعُبَيْدِ الله عَوْنٌ عَلَيْهِمُ، لضَاقَتْ عَلى وُرّادِ أمْرٍ مَصَادِرُهْ

٢١ــ حُلُومٌ أضَلّتْهَا الأمَاني، وَمُدّةٌ تَنَاهَت، وَحَتفٌ أوْشَكَتهُ مَقَادِرُهْ

٢٢ــ وَمُغْتَصَبٍ للقَتلِ لَمْ يُخْشَ رَهْطُهُ، وَلَمْ يُحْتشَمْ أسْبَابُهُ وَأوَاصِرُهْ

٢٣ــ صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السّيُوفُ حُشَاشَةً، يَجُودُ بها ،والموْتُ حُمرٌ أظافِرُهْ

٢٤ــ أُدافِعُ عَنهُ باليَدَينِ ، وَلَمْ يَكُنْ ليَثْنِي الأعادِي أعزَلُ اللّيلِ حاسِرُهْ

٢٥ـ وَلَوْكَانَ سَيفي ساعةَ القتل في يدي درَى القاتلُ العَجلانُ كيفَ أُساوِرُهْ

٢٦ــ حَرَامٌ عليّ الرّاحُ، بَعْدَكَ، أوْ أرَى دَماً بدَمٍ يَجرِي عَلى الأرْضِ مائرُهْ

٢٧ــ وَهَلْ أرْتَجِي أنْ يَطْلُبَ الدّمَ وَاتِرٌ يَدَ الدّهْرِ، والمَوْتُورُ بالدّمِ وَاتِرُهْ

٢٨ــ أكانَ وَلِيُّ العَهْدِ أضْمَرَ غَدْرَةً؟ فَمِنْ عَجبٍ أنْ وُلِيَ العَهدَ غادرُهْ

٢٩ـ فلا مُلّيَ البَاقي تُرَاثَ الذي مَضَى، وَلا حَمَلَتْ ذاك الدّعَاءَ مَنَابِرُهْ

٣٠ــ وَلاَ وَأَلَ المَشْكُوكُ فيهِ،وَلا نَجَا من السّيفِ ناضي السّيفِ غدراًوَشاهرُه

٣١ــ لَنِعــمَ الــدّمُ المَسْــفُوحُ،لَيلَةَ جَعفــرٍ، هــرَقتُمْ، وَجُــنحُ اللّيــلِ سُــودٌ دَيَاجِــرُهْ

٣٢ــ كــأنّكُمْ لــمْ تَعْلَمُــوا مــنْ وَلِيُّــهُ، وَنَــاعيهِ تَحْــتَ المُرْهَفَــاتِ وَثْــائِرُهْ

٣٢ . وإنّــي لأرْجُــو أنْ تُــرَدّ أُمُورُكُــمْ إلــى خَلَــفٍ مِــنْ شَخصــهِ لا يُغَــادِرُهْ

٣٣ . مُقَلِّــبُ آرَاءٍ تُخَــافُ أنَاتُــهُ، إذا الأخــرَقُ العَجــلانُ خيفــتْ بَــوَادرُهْ (١)

مناسبة القصيدة :

نظم الشاعر هذه القصيدة يوم مصرع الخليفة المتوكل ، ولقد قتل في مجلس شرابه ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان ، ولقد أجمعت كتب التاريخ على أن المنتصر ابن الخليفة المتوكل كان شريكاً في التآمرعلى قتل أبيه ؛ لأن الوزيرين عبيد الله ، والفتح بن خاقان كانا يوغران قلب المتوكل على ابنه المنتصر ، ويرغبانه في عزله من ولاية العهد ؛ ليكون الأمر للمعتز . . . فاستمال المنتصر إليه قواداً من الأتراك ، ودبروا معه مؤامرة ، تولاها باغر التركي ، فأمر باغر التركي الذي كان يتولي حراسة الخليفة ، فدخل عليه ، ورجاله ، وقد أخذ منه الشراب ، فضربوه بالسيف ، وكان معه الفتح بن خاقان ، فألقى بنفسه عليه ، فقتلوه معه . (٢)

(١) ديوان البحتري ، ٢ / ١٠٤٥ ، ١٠٤٩ ، ت / حسن كامل الصيرفي ، الطبعة : الثالثة ، طبعة : دار المعارف .

(٢) انظر : الكامل في التاريخ ، تأليف: أبو الحسن الشيباني،٦ /١٣٦، ت : عبد الله القاضي دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢: ١٤١٥هـ ، والدولة العباسية ، للشيخ / محمد الخضري ، ص ٢٦٨، ٢٦٩ ، ط: الاستقامة بالقاهرة .

السياق العام للقصيدة :

وصف مدى تحكم القدر في مصير الإنسان ، وفي كل شيء حوله ؛ مما جعل البحتري يغوص في لجة من الحسرة ، واليأس ، وهو يحاول أن يبحث من خلالهما عن معنى للحياة .

السياقات الخاصة للقصيدة :

١ـ استرجاع لصورة الماضي ، كشف من خلاله عن مدى المفارقة بين ماضي المكان وحاضره . من البيت ١ : ١١ .

٢ـ حديثه عن المرثى ، وما تعرض له من غدر ، وخيانة . من البيت ١٢ : ٢٢.

٣. حديثه عن نفسه ، وموقفه من هذه الواقعة التي شاهدها بعينه،ومدى يأسه من مناصرة أي شيء له . من البيت ٢٣ : ٣٣

الجهة الجامعة لهذه الأغراض :

هي الحسرة ، والأسى على ما حدث ، وهو يواجه حالة التغيير التي أحدثها الزمن بعد فقده للخليفة المتوكل .

مطلع القصيدة ، وعلاقته بمقصدها ، والتراكيب المبثوثة فيها .

مَحَــلٌّ علــى القَــاطُولِ أخْلَــقَ داثِــرُهْ، وَعادتْ صُرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ .

كــأنّ الصَّــبا تُــوفي نُــذُوراً إذا انبَــرَتْ تُرَاوِحُــــهُ أذْيـــــالُهَا، وَتُبـــــاكِرُهْ .

تميزت هذه القصيدة عن أغلب قصائد الرثاء ، بأنها جاءت بمطلع ذي

طابع طللي ومن المعهود أن المطالع الطللية دائم ما تكون في القصائد التي تفيض بالغزل ، والمرح ، وتخلو من أي هم من هموم الحياة ، بخلاف قصائد الرثاء ، ففي غالبها ما تتسم بمطالع كلها توحي بالحزن الشديد ، بما فيها من ألفاظ انفعالية تدل على نفسية الشاعر ، وأهمية المرثى بالنسبة له ، وللتجربة التي يعايشها ، ويقاسيها ؛ إذ إن الآخذ في مثل هذه القصائد ، كما يقول ابن رشيق : " يجب أن يكون مشغولاً بما هو فيه من الحسرة ، والاهتمام بالمصيبة " (١)

ففي الغالب أن الشعراء الجاهليين ، وشعراء صدر الإسلام كان يتبعون في رثائهم المنهج الشعري الجاهلي المعروف في فن الرثاء ، ويدخلون في الرثاء مباشرة ؛ لحزنهم الشديد ، فتجري الكلمات في مجرى عاطفي حزين ؛ مما يجعل الشاعر يستهل رثاءه بما يظهر حزنه ، وتفجعه على المرثى (٢) ، ولقد راجعت مطالع كثير من قصائد الشعراء الجاهليين ، وشعراء صدر الإسلام في فن الرثاء ، فوجدت أن القصائد التي بدأت بالوقوف على الأطلال تُعَدَّ من الندرة بمكان ، ومن ذالك رثاء النابغة الذبياني للنعمان الغساني ، والتي يقول في مطلعها : .

دعاكَ الهوَى، واستَجهَلَتكَ المنازِلُ وكيفَ تَصابي المرءِ ،والشّيبُ شاملُ؟

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ١ / ١٥٢، ت / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط : دار الجيل – بيروت ، ط ٥ : ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

(٢) ومن ذلك ما قاله المهلهل : لَيْبُ لاَ خَيْرَ في الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا ** إنْ أنتَ خليتها في منْ يخليها) (كُلَيْبُ أَيُّ فَتَى عِزٍّ وَمَكْرُمَةٍ ** تحتَ السفاسفِ إذْ يعلوكَ سافيها)(ديوان مهلهل بن ربيعة ، ص ٨٩ ، دار صادر بيروت) ، وقول الخنساء في رثاء أخيها صخر : أعينيّ جودا ولا تجمُدا **ألا تبكيانِ لصخرِ النّدى ؟) (ألا تبكيانِ الجريءَ الجميلَ **ألا تبكيانِ الفَتى السيّدا؟) (ديوان الخنساء ، ص٣٠ ، طبعت بيرت)

وقفتُ بربعِ الدارِ، قد غيرَ البلى ، والسّارِياتُ الهواطِلُ [1]

ومن ذالك . أيضا . رثاء دريد بن الصمة لأخيه عبد الله، والتي مطلعها:

أمرتُهم أمرى بمُنعرجِ اللّوَى فلم يستبينوا الرشدَ إلا ضُحى الغدِ

فلما عصَوني كنتُ منهم وقد أرى غَوايتهم أو أنفي غير مهتدي

وما أنا إلا من غَزيّةَ إن غوتْ غوْيتُ وإن تَرشُد غَزّيةُ أرشَدِ[2]

ومن ذالك . أيضاً . ما جاء في رثاء لبيد لأخيه أيد ، والتي يقول في مطلعها :

بلينا وما تبلى النجومُ الطَّوالِعُ وتَبْقَى الجِبالُ بَعْدَنَا والمَصانِعُ

وقد كنتُ في أكنافِ جارِ مضنّة جارٌ بأرْبَدَ نافِعُ

جَزِعٌ إنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فَتًى يَوْماً بهِ الدَّهْرُ فاجِعُ [3]

ثم إن تتبع هذه المطالع عند الشعراء ، مع بيان مدى الملاءمة بينها ، وبين مقصد القصيدة ، وأجزائها المبثوثة فيها ؛ مما يعوز إلى كثير من الجهود الواعية المخلصة ؛ حتى تستخرج من وراءها الدرر المصونة .

ولكن إذا أمعنا النظر في هذه القصيدة التي معنا ، نجد أن الأمر فيها على

(١) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١١٥ ، ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : دار المعارف بمصر .

(٢) ديوان دريد بن الصمة الجشمي ص ٤٧ ، ت / محمد خيري البقاعي ،طبعة / دار قتيبة .

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ، ص٨٨ ، دار صادر . بيروت .

وجهين : .

أولهما :- إذا نظرنا إلى المقدمة الطللية على أن هذا النهر المعبر عنه بالقاطول [1] هو نهر حقيقي ، وواقعي ، وليس متخيلاً . وهو الأقرب للقبول . وبهذا يكون هذا المطلع الذي يبكي فيه الشاعرهذا المكان ، وما حَلَّ به ، يكشف لنا عن مدى الحسرة ، والأسى التي أصابت الشاعر ، وهو يواجه حالة التغيير التي أحدثها الزمان في كل شيء حوله ، فالبكاء على الأطلال هنا يصور مدى حنينه إلى الماضي الذي يعتصر قلبه على فقده ، وهذا يدل على مدى تعلقه ، وارتباطه الشديد بالمكان ، وساكنيه ، بل وبالحياة بوجه عام التي كانت فيه . فالوقوف على الأطلال ،كما يقول الأستاذ الدكتور أبو موسى : " حال من الأحوال التي يغلب على الشاعر فيها وجدُه ، وشجنه ، فيسأل ، ويستنطق من لا يجيب ، ولا ينطق ، ويبث أشجانه ، وأشواقه أحجاره ، وملاعبه . . . وهذه البدايات في القصائد مشحونة بالوجد ، واللوعة ، وهي أحسن ما يُستفتح به الشعر " [2]

ومن هنا فقد استهل الشاعر قصيدته بذلك الإخبار الذي يستدعي التوقف ، والنظر والتأمل فيما حدث ، ومدى وقعه ، وفجيعته عليه ، وهو ينطق بتلك الكلمات ، ويصف الحال الذي صار إليه ذاك المكان . فالمكان – وهو نهر القاطول – قفرٌ بعد ما لعبت به صروف الدهر ، وغاورته ريح الصبا ؛ لتطمس معالمه ، وتحوله

(١) وهو موضع قريب من الجزيرة والموصل (معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع تأليف / عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ٣ / ١٠٤٤ ، ت / مصطفى السقا ، ط : عالم الكتب بيروت ط٣ : ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م

(٢) الإعجازالبلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) ، تأليف د / محمد أبو موسى ، ص ٢٨١ ، الناشر : مكتبة وهبه ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

إلى رمز ، وعلامة على الموت والفناء ، بعدما كان هذا النهر بمائه مصدرًا ، ورمزًا للحياة.

ومن هنا فإن مطلع هذه القصيدة لا يبتعد عن الغرض العام للقصيدة الذي انتهجه الشاعر وهو خط الحسرة ، والأسى . فالبداية الطللية ، إنما تدل على واقع مجتمعي ملموس ، يعيشه الشاعر ، ويهيمن على المكان . فالنهر هنا واقعي وليس متخيلاً كما أن فعل الطبيعة ، والقدر شيء يعيشه المجتمع المحيط بالمكان ، وهو واقع ملموس – أيضاً – ، والكلام إنما هو حقائق إخبارية ، وليس من قبيل المجاز، أوالتخيل ، وهذا كله ؛ مما يجعل المتلقي يعايش ذلك الواقع ، ويحس به ، وبالشاعر، وما كان يعانيه من حسرة ، وأسى .

وهذا المطلع ، والاستهلال يتناسب ، ويتناسق . أيضاً . مع بقية أبيات القصيدة وأجزائها ؛ إذ إن الشاعر أمام هذا الحدث ، وتلك الفجيعة التي يحث فيها بالحسرة ، والأسى ويصف مدى تحكم القدر في مصير الإنسان ، يريد أن يلفت النظر من البداية أنه بقصيدته هذه إنما يبكي نفسه قبل أن يبكي المرثى ، ومن ثَمَّ جاء بالسياق الأول للقصيدة الذي يسترجع فيه صورة الماضي ؛ كاشفًا من خلاله عن مدى المفارقة بين ماضي المكان وحاضره ، ثم أتى بعده بالسياق الثاني الذي تحدث فيه عن المرثى ، وإخباره عن ما حدث له من غدر ، وخيانة ، ومدى حسرته عليه من عدم وجود الناصر له ، والمعين ، ثم وصل من خلال ذلك إلى حديثه عن نفسه ، ومدى يأسه من مناصرة القدر له ، وهذا يدل على أنه لم يكن راضي النفس ، ولا مطمئن المشاعر ، وإنما يبدو في أغلب الأحيان ساخطًا على الحياة ، وضيقًا مما حوله ، وقلقًا ، وخائفًا من الأيام .

ومن هنا يمكننا أن نستشف من خلال المطلع المشاعر الحقيقية للشاعر ،

ومدى قدرة الشاعر من خلاله أن يبرز مشاعر الحسرة ، والأسى على ما فاته من حظوظ الدنيا .

ومن ثمّ " فقد تمكن البحتري أن ينأى بقصيدته من مثالب التجريد الفكري والضجيج والصخب الموسيقي ، والسلبية التقليدية في إظهار مشاعر حزنه ، وأوصاب نفسه ، وعلى الرغم من أن القصيدة تدرج ضمن فن الرثاء في الشعر العربي ، إلا أنها تختلف تماماً ، وترتفع كثيراً عما ألفناه من الصور التقليدية لذلك الفن الشعري " (١) ، " وهي مقدرة فنية تضاف إلى مقدرة الشاعر على التعبير ، والتصوير ، حيث يضيف إلى الشيء الظاهر المعروف ، وهو موضوع القصيدة في ظاهرها شيئاً آخر غير ظاهر ، ولا متوقع ، وهو مشاعره ، وعواطفه التي تكمن في أعماق نفسه " (٢)

آخرهما :- إذا نظرنا إلى المقدمة الطللية على أن هذا النهر ليس حقيقياً وإنما هو رمز لشيء معين في نفسية الشاعر ، وبهذا يكون الشاعر بهذه المقدمة يرمز إلى واحد من أمرين : -

أولهما : أن الشاعراستعمل لفظ (القاطول) على أنه فاعول من القطل – وهو القطع – كما يقال : فاقور من الفقر ، قال الأخطل (٣) :

---

(١) البحتري بين نقاد عصره ،تأليف / صالح حسن اليظى ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ، طبعة دار الأندلس ، ط١ : ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

(٢) انظر: مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، د / عبد الحليم حفني ص ٢٤٦ ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .

(٣) ديوان الأخطل ، ص ١١٩ ، شرحه / مهدي محمد ناصر الدين ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ط١ : ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

وأفلـــتَ حـــاتمٌ بفلـــولِ قـــيسٍ إلـــى القـــاطولِ ، وانتهـــكَ الفِـــرارا [1]

وبهذا يكون الشاعر استعمل هذه اللفظة ، وهو يرمز بها من خلال ألفاظه وبناء تراكيبه ، إلى مدى القطع ، والمفارقة بين ماضي المكان ، وحاضره ، وإلى قطع أواصر الرحمة بين الابن ، وأبيه ، وكيف أن الابن تآمر ، بل شارك في قتل أبيه ؟! وكما يشير . أيضا . بهذه اللفظة إلى قطع أواصر الرحمة بين الخليفة ، وبين أقرب الناس إليه ، وكيف أنه لم يجد ناصراً ، ومعيناً له وقت غدر الأعادي به ، وهذا كله سوف يتضح من خلال المعايشة مع أبيات القصيدة ، وكيف أن الشاعر قد وظف أبياته لخدمة هذا الغرض ، وامتداداً بها ، حتى وصل إلى نقطة اليأس ، والحسرة ، وعدم القدرة على الأخذ بالثأر للخليفة ؛ لأن المطالب بالأخذ بالثأر هو القاتل نفسه ، وهذه المعاني هي الجهة الجامعة لأغراض القصيدة . كما سبق وأن بينت .

آخرهما :- أن الشاعر استعمل لفظة (القاطول) ، وهو يرمز من خلالها إلى القتل والفناء باعتبار أن (القاطول) أصلها (القاتول) من القتل على زنة فاعول ، فحدث في الكلمة إبدال التاء طاءً على اعتبار أنهما من مخرج واحد . هو طرف اللسان . وبهذا يكون الشاعر استعمل هذه الكلمة ، وهو يرمز بها إلى القتل ، أو الفناء الذي أصبح مهيمناً على كل شيء حوله ، وأصبح المكان الذي هو في أصل ذاته نهراً ، يرمز للحياة في أبهى صورها ، أصبح رمزاً للموت ، وعلامة على القتل ، والغدر ، حتى يصل بالشاعر إلى نقطة الحسرة ، واليأس التي هي الغرض العام للقصيدة أيضا.

(١) انظر : معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٣ / ١٠٤٤.

وفي استعمال الشاعر هذه اللفظة ، وهو يرمز بها لشيء معين ، فإن دلَّ فإنما يدل على مدى ذكاء الشاعر ، وقدرته على إيصال فكرته للمتلقين ، دون أن يجعل لأحد عليه سبيلاً ، فقد استعمل اللفظة ، وهو يشير بها إلى الواقعة ، ومدى فجاعتها وجرمها ، دون أن يصرح بها ؛ خوفاً من سطوة ابن الخليفة عليه .

السياق الأول :

١. مَحَلٌّ على القَاطُولِ أَخْلقَ داثِرُهْ وَعادتْ صرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ

٢ . كأنّ الصّبا توفي نُذُوراًإذاانبرَتْ تُرَاوِحهُ أذْيَالُهَا، وَتُبَاكِرُهْ

٣. وَرُبّ زَمَانٍ نَاعِمٍ ثَمّ عَهْدُهُ، ترِقُّ حَوَاشِيهِ،وَيُونِقُ نَاضِرُهْ

٤ . تَغَيّرَ حُسْنُ الجَعْفَرِيّ وأُنْسُهُ، وَقُوّضَ بَادي الجَعْفَرِيّ وَحَاضِرُهْ

٥ . تَحَمّلْ عَنْهُ سَاكِنُوهُ، فُجَاءَةً فَعادَتْ سوَاءً دُورُهُ، وَمَقابِرُهْ

٦ . إذا نَحْنُ زُرْنَاهُ أجَدّ لَنَا الأسى، وَقَد كَانَ قَبلَ اليَوْمِ يُبهَجُ زَائِرُهْ

٧ . وَلم أنسَ وَحشَ القصرِ،إذرِيعَ سرْبُهُ وإذْ ذُعرَتْ أطلاَؤهُ وَجَآذِرُهْ

٨ . وإذْ صِيحَ فيهِ بالرّحِيلِ، فهُتّكَتْ عَلى عَجلٍ أسْتارُهُ وَسَتَائِرُهْ

٩ . وَوَحْشَتُهُ ،حَتّى كأنْ لَم يُقِمْ بِهِ أنيسٌ،وَلمْ تَحْسُنْ لعينٍ مَنَاظِرُهْ

١٠. كأَن لمْ تَبِتْ فيهِ الخِلاَفَةُ طَلْقَةً بَشَاشَتُها،والمُلكُ يُشرِقُ زَاهرُهْ

١١. وَلمْ تَجْمعِ الدّنْيَا إلَيهِ بَهَاءَهَا، وَبَهجَتَها، والعيشُ غَضٌّ مكاسرُهْ

جاءت هذه الأبيات في سياق وصف البحتري لحاضر المكان ، وما خلفه موت الخليفة المتوكل على المجتمع بأثره ، مع المقارنة بين ماضي المكان ، وحاضره . هذا هو السياق الكلي العام للأبيات ، أما عن السياق الجزئي الدقيق ، فيختلف من بيت لآخر اختلافاً يسيراً ، ففي البيت الأول ، تحدث الشاعرعن حال هذا النهر. الذي هو رمز للحياة في هذا المكان . ومدى ما حلَّ به بعد تسلط الدهر عليه ، وجاء البيت الثاني ؛ ليدل على أن كل شيء كان يعطي معنى للحياة في هذا المكان أصبح علامة ، وعنواناً على الموت ، وفي البيت الثالث يحاول الشاعر أن يسترجع صورة هذا المكان في الماضي القريب ؛ ليعقد مقارنة بين ماضي المكان ، وحاضره ، يبرز من خلالها مدى الحسرة التي ألمت به ، وفي البيت الرابع يصور الشاعر كثرة ما آل إليه ذاك المكان ؛ حتى يواجه نفسه الطامحة ، والآمالة في رجوعه لعهده القديم ، وفي البيت الخامس يصور الشاعر مدى إحساسه بقصروقت السكنى في هذا المكان ، وانصرام عهدها ؛ لكثرة ما آل إليه ، حتى صارت دوروه ، ومقابره سواء ، وفي البيت السادس يتحدث الشاعرعن نفسه ، وعن المجتمع من حوله تجاه هذه الأحداث ومدى ما أصابهم من حسرة ، وآسى ، مع عقد مقارنة بين ماضي المكان ، وحاضره ، وفي البيت السابع يتحدث الشاعر عن وقع هذه الأحداث على نفسه خاصة وكيف أن الأمر فيه لم يقتصر على البشر فقط ، بل شمل الحيوانات أيضاً ؟! وفي البيت الثامن يصور الشاعر كيف أن هذه الأحداث كانت فجأة ، ومن حيث لا يتوقع ، ودون سابق إنذار، وفي البيت التاسع يتحدث الشاعر عن ذاته ، ومدى اشتياقه للعهد القديم لهذا المكان ، لدرجة أنه من شدة اشتياقه يتخيل كأن لم تكن هناك حقائق عايشها ، وفي البيت العاشر يحاول أن يبرهن ، ويدلل على ما وصل إليه حال هذا المكان ، بسرد بعض المشاهد الجزئية التي تدل على ذهاب كل علامات الملك ، والسلطان عن هذا المكان ، وفي البيت الحادي

عشر ، نفي عن هذا المكان ذهاب علامات البشاشة والزهو أيضاَ ؛ ليدلل على مدى ما أصابه ، مع ما كان يتمتع به في الماضي القريب .

ولقد بدأ البحتري واصفـًا لحال هذا النهر بهذا الأسلوب الخبري ؛ لإثارة الاهتمام بمضمون الكلام ، وبيان مدى الحسرة التي ألمت بالشاعر، من خلال رسم صورة قاسية لما حَلَّ بهذا النهرالذي كان مصدرًا ، ومنبعًا للحياة ، فقال: (محلٌّ على القاطول أخلق داثره) ، و"المَحْل : نقيض الخِصْب ، جمعه مُحول وأَمْحال . . . وأَرض مَحْلٌ ، وقَحْطٌ : لم يصبها المطر في حينه " [1] " وأَخْلَق إِخْلاقاً ، واخْلَوْلَق : بَلِيَ " [2] ، وقوله : (داثره) من " دَثَرَ الشيءُ يَدْثُرُ دُثُوراً ، وانْدَثَر : قَدُمَ ، ودَرسَ " [3] ، والمعنى : أصبح هذا النهر قفرًا لا نبت فيه ، ولا أمل فيه بالحياة ، بعد أن قدم ودرس ، وعفى عليه الزمان .

وقدَّم الصفة (محل) على الموصوف (القاطول) ، فقال : (محل على القاطول) ، ولم يقل : القاطول محل ؛ لإيقاع المعنى المراد من أول وهلة ، ومع أول لفظة ، وبيان أن الغرض الأول من هذا التعبير ، هو إظهار ما لحق بهذا المكان ، دون الحديث عن المكان ذاته .

وفي التعبير بحرف الاستعلاء (على) فيه بيان لمدى تلبس هذه الصفة بالموصوف فكأن صفة القفر ، أصبحت علامة مميزة له ، ومتلبسة به ، لا تنفك عنه ، ولا أمل لرجوعه إلى حالته الأولى .

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور – مادة محل (١١ / ٦١٦) ، دار صادر – بيروت الطبعة الأولى (بدون تاريخ)

(٢)المرجع السابق – مادة خلق (١٠ / ٨٥)

(٣) لسان العرب– مادة دثر (٤ / ٢٧٦)

ثم تمادى الشاعر في المبالغة في وصف ما صار إليه هذا المكان بقوله : (أُخلق داثره) ، والمعنى : بلي ، وأمحى كل أثر فيه . وفي بناء الفعل للمجهول ، إشارة إلى أن الغرض من الكلام هو إظهار ما لحق بالمكان ، وإظهار الفعل ذاته ، دون الحديث عن الفاعل .

والتعبير بالفعل الماضي يدل على تحقق الوقوع ، وحتمية الحصول ، وبناء الفعل للمجهول ؛ لينصب الاهتمام على الحدث نفسه ؛ لكون الغرض متعلقًا به ، وليس متعلقًا بالفاعل ؛ فأراد الشاعر من خلال هذا الفعل (أخلق) تركيز العبارة، وتحديد المطلوب ؛ ليكون وقعه على النفس أقوي ، وأثره فيها أبقي.

قال العلامة المرزباني:" ومما أنكرعلى البحتري قوله:(محل على القاطول أخلق داثره) ، وقالوا:إنما يُقال : دثرمُخْلِقهُ،ولا يُقال: أخلق داثره ؛ لأن الداثرلا بقية له ، فتخلق ، أو تُستجد ،وسمعت أبا الحسن على بن هارون يقول : خُذل البحتري في هذا الابتداء من قصيدته هذه " [1]

ولكن بالنظر ، يمكن حمل الكلام على أنه من قبيل القلب في الكلام[2] ،وهو يُعدُّ شعبة من إخراج الكلام لاعلى مقتضى الظاهر ، وله شيوع في التراكيب ،وهو

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تأليف / أبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني ص ٣٧٧ ، ت / محمد حسن شمس الدين الناشر : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان ط١ : ١٣١٥ هـ/ ١٩٩٥م

(٢) وهو أن يكون الكلام بحيث لو عكسته وجأت بحرفه الأخير إلى الأول كان الحاصل هو هذا الكلام ويجري في النثر والنظم (الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي ٦ / ١١٣ بالهامش ، الناشر : دار الكتاب الحديث الكويت (بدون تاريخ)

مما يورث الكلام ملاحة وظرفاً . كما وصفه العلامة السكاكي . [1] ، وبالإضافة إلى ذلك يمكن القول : أن القلب هنا تضمن اعتبارًا لطيفًا زائدًا على الملاحة التي ذكرها العلامة السكاكي ، وهو المبالغة في تصوير ما حَلَّ بهذا المكان . فالبحتري بقوله (أخلق داثره) كشف عن مدى فصاحته وبلاغته ، فكأنه بعد أن بدأ مطلع القصيدة بتلك الصيغة القوية : (محل على القاطول) أراد أن يثبت بالبرهان ، والدليل العلة لهذا الوصف عن طريق الإسناد المجازي في قوله :(أخلق داثره) ، حيث أسند الفعل (أخلق) إلى قوله:(داثره) ، وهو من باب إسناد الشيء إلى مفعوله ؛ حيث إن الاندثار ليس هو فاعل الإخلاق ، وإنما مفعول الإخلاق ، فالإسناد هنا يكشف عن مدى وحشية المكان ، وانعدام الحياة فيه ، " وليس لنا أن نفترض هنا خطأ البحتري،أو سهوه ، فصياغته للمعنى واضحة الدلالة على ما يموج بأعماقه من إحساس بكثافة ، وشناعة ما انتهت إليه الدولة من تمزق ، بدأ منذ أمد بعيد ، وتكثف بمصرع المتوكل فالذي أخلق ، وبلي ، هو شيء في الحقيقة ، قد اندثر ، وفني . في شعور الشاعر ، ولا شعوره معاً . منذ أن تسلط الأتراك ، وصارت لهم الكلمة ، وغلبت عليهم المطامع ، والأهواء ، في تنصيب الخلفاء ، وعزلهم . . . بل وقتلهم أيضاً " [2]

ومن ثَمَّ ، ففي التعبير بالماضي في قوله : (أخلق) ، وما فيه من دلالة على تأكيد وقوع الحدث ، وبصيغة اسم الفاعل في قوله :(داثره) وما فيها من دلالة على الثبات والاستمرار فيه إشارة إلى مدى حتمية الإقفار الذي لحق بالمكان

(١) مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب السكاكي ، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور ص ٩١ ، دار الكتب العلمية (بيروت . لبنان) ، ط٢ : ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

(٢) البحتري بين نقاد عصره ، ص ٣٥٢ .

وتحققه ، وأنه لا أمل في رجوع هذا المكان لعهده القديم مرة أخرى .

ولعل في هذا إشارة إلى أن إقفار المكان ، وصيرورته لما هو فيه أمر محتوم ثابت مستقر منته ؛ لأنه هو مرتبط بفقده للخليفة المتوكل .

ومن هنا نلحظ أن الشاعر قد اختار ألفاظًا تنتمي إلى قطاع دلالي واحد ، ومتشابهه في المدلول ؛ ليصور ما لحق بهذا المكان ، فقوله : (محل ، أخلق ، داثره) كلها تدل على معنى الذهاب ، والاندثار ، وفي تنوع الشاعر في استخدامها دلالة على مدى ما لحق بالمكان ، وأن الموت أصبح مواكبًا ، وملازمًا له ، وفيه دلالة – أيضاً – على مدى حسرة الشاعر ؛ مما يراه بعينيه .

وفي ترداده لما لحق بهذا المكان بألفاظ مختلفة ذات دلالات واحدة ؛ لعله يجد في هذه الألفاظ المتباينة الشكل المتساوية المعنى بلورة لما يراه ، ويتوجع له، وقدرة على إثارة الانفعال ، والتعاطف في نفوس المتلقين ،وكما يقول أبو موسى : " وهذا يعني التناسق ، أو التنادي ، أو التناغم في المعجم الشعري ، وهو ما سماه علماؤنا مراعاة النظير [1] " [2] .

---

(١) ويطلق عليه مراعاة النظير والائتلاف ، وقد وضعه أبو هلال العسكرى تحت مصطلح جمع المؤتلف ، والمختلف (كتاب الصناعتين فى الكتابه والشعر ، لأبى هلال العسكرى، ت/ مفيد قميحه ٤١٧، ط٢، دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م) وقد سماه ابن الاثير المؤاخاة بين المعانى (المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ٣ /١٥٣) ، وقد عرفه الخطيب بقوله: أن يجمع فى الكلام بين أمر ، وما يناسبه لا بالتضاد ، الإيضاح٦ / ١٩).

(٢) انظر : دراسة في البلاغة والشعر د / محمد محمد أبو موسى ص ٢٤٦ ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط١ : ١٤١١ هـ / ١٩٩١م.

ثم يأتي الشطر الثاني (وَعادتْ صُرُوفُ الدّهرِ جَيشاً تُغاوِرُهْ) [1] معطوفًا على سابقه ؛ ليؤكد هذا المعنى ، ويقويه ، بحيث صور صروف الدهر، وأحداثه كالجيش الذي تسلط على هذا المكان ، وفرض سيطرته عليه ؛ ليطمس معالمه .

ونلحظ هنا أن الشاعر اختار التعبير بقوله : (وعادت) ، ولم يقل : وأتت صروف الدهر ؛ للدلالة على أن عهدها به دائم ، ومتجدد ، ودائماً ما تأتي لتهاجمه ، وليس هو إتيان لأول مرة ، إذ العود فيه دلالة على إتيان الشيء ثانية قال تعالى : (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ) [2] بخلاف الفعل (أتي) يدل على إتيان الشيء لأول مرة قال تعالى : (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ) [3]

وفي تعبيره بالماضي في قوله :(وعادت) ، وبالمضارع في قوله : (تغاوره) ؛ للدلالة على أن مع تأكد وقوع العودة من الدهر لهذا المكان ، تأكد أيضًا أنه عود على جهة التجدد والحدوث .

والتعبير بلفظة (صروف الدهر) فيه دلالة على مدى قدرة الشاعرعلى انتقاء ألفاظه ؛ إذ صيغة (صروف) تتناسب مع جو الرهبة ، والخوف الذي يريد أن يرسمه الشاعر ، ويخلعه على المكان . واختيارالشاعر للفظة (الدهر) دون غيرها ، كالزمان فيه دلالة على مدى طول المدة الزمنية التي تسلط فيها الدهر على هذا المكان ؛ لإلحاق الضرر به .

وتنكير ، وتنوين لفظة (جيشاً) بما في التنكير من معنى الإيهام ، والخفاء

---

(١) صَرْوفُ الدَّهْرِ : حِدْثانُه ونَوائبُه (لسان العرب – مادة صرف (٩ / ١٨٩)

(٢) سورة المائدة من الآية ٩٥ .

(٣) سورة النحل من الآية رقم ١ .

وبما في التنوين من معنى التعظيم ، يتناسب مع السياق ، والمقام ، بما فيه من إشعار بمدى تسلط الزمان على هذا المكان ؛ لإلحاق الضرر به ، يقول الدكتور عبد الغني محمد بركه : " إن هذا الإيهام ، والعموم الذي تتضمنه النكرة في دلالتها ، منحها مرونة كبيرة في الاستجابة لما يوحي به السياق ، إذ يضفي عليها ظلالاً تميل بها إلى الإفصاح عن معان ، تتولد منها بمعونة القرائن ، ومن هنا تعددت المعاني التي يوصي بها التنكير، من خلال استجابتها لما يوميء إليه السياق ، ويتطلبه " (١)

ويتمادى الشاعر في انتقائه لألفاظه بقوله : (تغاوره) دون تحاربه مثلاً ؛ إذ إن هذا الفعل بما فيه من دلالة على شدة الخفاء ، والتستر ، هو الأنسب للسياق ، والمقام ؛ إذ فيه دلالة على شدة ما يخيفه الدهر لهذا المكان ، قال ابن منظور : " غَوْرُ كل شيء : عُمْقه ، وبُعْده ، أَي : يَبْعُد أَن تدركوا حقيقةَ علمه ، كالماء الغائرِ الذي لا يُقْدَر عليه" (٢)

والتعبير بصيغة المفاعلة (تغاوره) بما فيها من دلالة على المشاركة ، والمفاعلة مناسبة لمعنى القصد ، والحرص على إلحاق الضرر بهذا المكان .

والكلام من قبيل التشبيه البليغ المحذوف الوجه ، والأداة ، والتقدير : وعادت صروف الدهر كالجيش تغاوره ، وتحاربه ، وهذا من باب التدرج في الوصف ، فبعد أن استعمل الشاعر الألفاظ الحقيقية المدرجة استعان بالصورالمجازية ؛ للمبالغة في وصف مدى إقفارهذا المكان ، وخلوه من أسباب الحياة ، بل إنه لم

(١) مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث / د عبد الغني محمد بركة ، ص ١١٠ ، ط :دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م .

(٢) لسان العرب مادة غور ٥ / ٣٤ .

يكتف بذالك أيضًا ، بل استعان في البيت الثاني بأداة التشبيه (كأن) التي تقرب بين المتباعدات فقال :

كـأنّ ريـح الصَّبا تُوفي نُـذُوراً إذا انبَـرَتْ تُرَاوِحُـــــهُ أذْيَالُـــــهَا، وَتُبَـــــاكِرُهْ

حيث شبه الشاعر ريح الصبا برجل عليه نذر يجب الوفاء به تجاه هذا المكان ، فالأمر أصبح إلزاميًا لريح الصبا بأن تلحق الضرر بهذا المكان .

وهنا نلحظ : أن من المعروف أن كلمة (الصبا) تتصدر كل المفردات الجميلة ، والموحية بالحنين ، في شعر الشعراء الجاهليين ، وغيرهم من الإسلاميين ، ومن ذلك ما قاله عنتره : –

إذا ريـح الصَّـبا هبـتْ أصـيلاَ شَـفَتْ بهبوبهـا قلْبـاً علـيلا

وجـــاءَتني تخبـــر أنَّ قومـــي بمـن أهْـوَاهُ قـد جَـدُّوا الـرَّحيلا (١)

وقال مجنون ليلى:

أيـا جَبـلَيْ نَعـمانَ بـالله خلّـيا نسـيمَ الصـبا يَخْلُـص إلـيّ نسـيمُها

فـإن الصّـبا ريـحٌ اذا مـا تَنَـسّمت علـى نَفسِ مَهمُومٍ تجلّت همومهـا(٢)

ومنه – أيضاً – قول النبي ـ ﷺ ـ : (نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور)

(١) ديوان عنترة بن شداد ، ص ٢٣٣ ، ت / بدر الدين حاضري ، محمد حمامي الناشر : دار الشرق العربي بيروت ـ لبنان ، ط١ : ١٩١٢ هـ / ١٤١٢م .

(٢) ديوان مجنون ليلى شرح عبد المتعال الصعيدي ص ٧٣ ط٢ : دار الطباعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة

(١)

وبهذا نلحظ هنا مدى ذكاء الشاعر ، وقدرته على الإيحاء ، والرمز ، فهو باستعماله لكلمة (الصبا) في هذا المقام ، يشير إلى أن كل الأشياء التي كانت تعطي معاني للحياة في هذا المكان أصبحت مصدرًا ، وعلامةً ، وعنوانًا على الموت ، فكما أن نهر القاطول الذي كان مصدرًا للحياة أصبح عنوانًا للموت ، بما خلعه عليه الزمان ، فكذلك ريح الصبا التي كانت تهب بالخير أصبحت مصدرًا ، وعنوانًا للموت وهذا يدل على أن نفسية البحتري كانت ساخطة على الطبيعة من حوله ، ومما يستشهد به على ذلك . أيضا . قوله في مطلع قصيدته التي وصف فيها إيوان كسرى :

صُنْتُ نَفْسِي عَمّا يُدَنّس نفسي، وَتَرَفّعتُ عن جَدا كلّ جِبْسِ

وَتَماسَكْتُ حَينُ زَعزَعني الدّهْـ ـرُ التماساً منهُ لتَعسِي، وَنُكسي

بُلَغٌ مِنْ صُبابَةِ العَيشِ عندِي، طَفّفَتْها الأيّامُ تَطفيفَ بَخْسِ(٢)

والشاعر هنا لم يكتف بـ (كأن) التي تقرب المعاني البعيدة ؛ لما فيها من دلالة على قرب وجه الشبه بين المشبه ، والمشبه به ، بل إنه جعل الأسلوب يحمل بين طياته استعارة مكنية ، فجعل الريح كالرجل الذي عليه نذر يجب الوفاء به تجاه هذا المكان .

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، كتاب : الجمعة ، باب : صفة الشمس والقمر ١٠٩/٤ ، ت : محمد زهير بن ناصر الناصرالناشر : دار طوق النجاة ، الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ .

(٢) الديوان ٢ / ١١٥٢ ، ١١٥٣ .

وهنا نلحظ مدى دقة الشاعر، وقدرته على اختيار ألفاظه ، حينما عبر بقوله : (توفي نذوراً) ، فالتعبير بلفظة (توفي) يدل على أن أمر إلحاق الضرر أصبح بالنسبة للريح واجباً عليها تجاه هذا المكان ، كما أن الأمر المتعلق والمنوط بها ليس مرة واحدة ، وإنما هو مرات متعددة ، كما تشير دلالة الجمع في (نذوراً) .

وهذا الأمر الواجب الوفاء به إنما يتحقق (إذا انبرت تراوحه أذيالها ، وتباكره) ، وهنا نلحظ مدى دقة النظم في قوله :(إذا انبرت) واستعماله أداة الشرط (إذا) التي تدل على تحقق هذه الصورة ، ووقوعها كثيرًا ،إذ إن (إذا) الشرطية تستعمل في الشرط المقطوع بوقوعه ، تقول: إذا جئتني أكرمتك ، إذا كنت قاطعًا بمجيئه ، أو مرجحًا ذلك . (١)

ويبهرنا الشاعر في تعبيره بلفظة :(انبرت) دون غيرها ، كالتفت مثلاً ؛ لما فيهاً من إيحاءات تدل على مدى تعرض الريح للمكان بقوة ، وشدة بأس ، وكأنها تريد أن تقضي منه نهمها ، وتروي عطشها ، فهي من قولهم :" فلان يُباري فلاناً ، أَي :يعارضه ، ويفعل مثل فعله ، وهما يَتَبارَيانِ ، وانْبَرَى له ، أَي: اعتَرَض له ، ويُقال : تَبَرَّيْتُ لفلان إِذا تعرّضت له " (٢).

وبهذا تتوالى الصورالبيانية الواحدة تلوالأخرى ؛ لتصور مدى تسلط القدر والطبيعة على هذا المكان ، حيث صور تسلط الريح على هذا المكان بالدابة التي لها أذيال التفت على هذا المكان ، ولا تريد أن تتركه ليلاً ، ولا نهاراً .

---

(١) خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسي ، ص ٣٢٢ ، الناشر :مكتبة وهبه ، ط٨ : ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م .

(٢) لسان العرب مادة برى ١٤ / ٦٩ .

ومن جميل التصوير هنا قوله:(تراوحه ، وتباكره) وما فيه من دلالة على إرادة القصد ، والتعمد ليلاً ونهارًا . فالتعبير كناية على مدى تسلط ، وقوة ، وغلبة هذه الريح .

وفي التعبير بالمضارع دلالة على التجدد ، والاستمرار ، وتصوير مدى تلاحق الريح لهذا المكان ، وتصوير لشدة النكبات التي أوقعتها بالمكان ؛ من أجل النيل منه والإيقاع به ، وكما يقول الدكتور أبو موسى: " والفعل المضارع يدل على وقوع الحدث الآن ، وهذه دلالته الأصلية ، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها، وكأن العين تراها ، وهي تقع " [1]

والتعبير بـ (الأذيال) يتناسب مع جو الوحشة ، والرهبة ، الذي يريد أن يخلعه الشاعر على هذا المكان ، وما آل إليه .

وفي استعمال الشاعر في هذا المقطع لضمير الغيبة في قوله :(داثره، تغاوره، تراوحه، وتباكره) هو المناسب لجو الخوف ، والرهبة الذي يريد أن يرسمه الشاعر لهذا المكان .

والعطف بين قوله :(محل على القاطول ...) ، وقوله :(وعادت صروف الدهر ...) لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظـًا ، ومعنى . وفي العطف بـ (الواو) دون غيرها دلالة على مدى التلازم ، والتزامن في وقوع هذه الأحداث ؛ إذً العطف يقتضي التشريك في الحكم ، هذا من جهة ، ويدل على تنوع ، وتعدد الأحداث الواقعة في هذا المكان من جهة أخرى .

هكذا رسم البحتري صورة الطبيعة القاسية العنيفة ، ومدى تسلطها على هذا

(١) خصائص التراكيب، ص ٢٦٤ .

المكان ، وفي أثناء هذا التصوير يحاول أن يسترجع صورة هذا المكان في الماضي القريب في لمحة سريعة ؛ ليرمز بهذه الأحداث إلى مقصده المؤمّ من تصوير الفجيعة الكبرى التي لم ترمق مآقيه أبشع ، ولا أفدح منها طيلة حياته .

ثم بعد ذالك يحاول الشاعر أن يعقد مقارنة بين ماضي المكان ، وحاضره يُبرز من خلالها مدى الحسرة ، واليأس التي ألمت به ، فيقول :

وَرُبّ زَمَـــانٍ نَـــاعِمٍ ثَـــمّ عَهْـــدُهُ، تَـــرِقُّ حَوَاشِيهِ،وَيُونِـــقُ نَاضِـــرُهْ

فالشاعر بهذا البيت يحاول أن يبحث لنفسه عن أمل للحياة وسط تلك اللجة التي غاص فيها من الحسرة ، واليأس .

وفي قوله :(وربّ زمان ناعم ثمَّ عهدُه) إشارة إلى أن هذا الزمان المنصرم الناعم بالمقارنة بينه ، وبين واقع هذا المكان ، ومدى إقفاره ، وتسلط الطبيعة عليه اللامتناهي يُعدُّ قصيرًا ؛ ومن هنا اختار للتعبيرعن هذه الفترة الماضية قوله : (ثَمَّ عهده) ، ولم يقل:مضى عهده ، إذ إن في قوله : (ثَمَّ) إشارة ، وملمحاً أنه كان زمناً قليلاً جدًا ، بخلاف ما لو قال:مضى عهده ، إذ ربما يكون مضى، ولكنه كان وقتًا طويلاً .

ومن هنا نكّر الشاعر– أيضًا– قوله :(زمان ناعم) ؛ لما في التنكيرمن دلالة على التقليل ولكن مع تنوينه للفظتين دلالة . أيضاً . على أن هذا الزمان مع كونه قليلاً إلا أنه يُعدُّ عظيم الشأن في نفسه .

ويجيء قوله : (ترق حواشيه ، ويونق ناضره) ، والرِّقَّةُ : ضدُّ الغِلَظ رَقَّ يَرِقُّ رِقَّة ، فهو رَقِيقٌ [1] ، وحواشي الشيء دواخله ، ومنه " حوش الدار فناؤها ،

(١) لسان العرب مادة رقق ١٠ / ١٢١ .

وشبه حظيرة تحفظ فيه الأشياء ، والدواب [١]، فقوله : (ويونق ناضره) كناية عن صيرورته حسنًا مشرقًا ،من قولهم : استنوق الجمل ، صار كالناقة في ذُلِّها [٢] ، و ناضِره: من نضر وجهه : حسن [٣]

فالجملتان كنايتان عن رجوع الزمان لعهده القديم ، ويمكن حمل الكلام على الاستعارة المكنية ، حيث جعل الزمان كأنه نبات ، وتحدث عنه ، وكأنه ينتظر منه أقل القليل . وهذه الكناية ، أو الاستعارة تبرز مدى قوة الزمان ، وتسلطه على المكان ، وعلى كل شيء حوله بعد فقده للمتوكل ، وتظهر الصورة المفترضة التي تمناها البحتري ، وكأنها واقع ملموس ، وقربا المستحيل الممتنع عليه ، وكأنه يدور بين ناظريه ، فهو يريده زماناً يترقرق نعومة ، ولينًا ، ويغدو جميلاً ، وبهذا يكون الشاعر يحاول أن يواسي نفسه بنفسه بتلك الصياغة الجميلة

ولكن مع تصديره البيت بقوله : (ورُبّ) إشارة إلى أن هذا الأمل في نفسه ضعيف ، ولا يتوقع حصوله ؛ لعظم ما آل إليه هذا المكان ، ومن هنا أخذ يقف أمام نفسه الطامحة ، ويواجهها بالواقع المر الذي صار إليه كل شيء حوله بفقده المتوكل فعاد ثانيًا ؛ ليصور هذا المكان ، فقال :

تَغَيّــرَ حُسْــنُ الجَعْفَــرِيّ ، وأُنْسُــهُ، وَقُــوّضَ بَــادي الجَعْفَــرِيّ ، وَحَاضِــرُهْ

وهنا نلحظ مدى تفوق الشاعر ، وقدرته على اختيارالألفاظ المعبرة عن

(١) المعجم الوسيط – المؤلف / إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار – (١ / ٢٠٧) ، ت / مجمع اللغة العربية ، دار النشر : دار الدعوة .

(٢) انظر : لسان العرب مادة ونق ١٠ / ٣٦٠

(٣) انظر : أساس البلاغة ، للزمخشري ، مادة نضر ١ /٦٣٨ ، دار النشر: دار الفكر – ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

مراده ، والمناسبة لغرضه المروم ، وهو إظهار ما حَلَّ بهذا المكان ، فاختار الفعل (تغيَّر) دون غيره كتبدل مثلاً ،إذ التغيير يدل على تبديل الشيء إلى مناقضه تماماً بخلاف التبديل مثلاً ، قال ابن منظور: " والغَيْرُ الاسم من التغيُّر . . . وغَيَّرَ عليه الأَمْرَ حَوَّلَه وتَغَايرتِ الأَشياء : اختلفت ، والمُغَيِّر الذي يُغَيِّر على بَعيره أَداتَه ؛ ليخفف عنه ، ويُريحه " [1] ، فالتغيير هنا إنما حَلَّ بقصر المتوكل الذي سماه الجعفري ، و(الجَعْفَرُ : النَّهْرُ) عامَّةً : حَكَاه ابن جِنِّي ...وقيل: هوالنَّهْرُ (الصَّغِيرُ) وعليه اقتصرَ الجَوْهَرِيُّ وحَكاه ابنُ الأَعرابيِّ . . . وقيل: هو النَّهْرُ (الكَبِيرُ الوَاسعُ) ، وعليه اقتصرَ ابنُ الأَجدابيِّ في الكِفاية . . . (والجَعْفَرِيُّ : قَصْرٌ للمُتَوَكِّل) [2]

ولعل قوله :(الجعفري) إنما هو رمزلمظاهر الحياة جميعها في هذا القصر، فكل شيء في هذا القصر قد تبدل ، وصارعلى غير ما كان ، والتعبير بالماضي يصور لنا أن هذا الأمر صار أمرًا واقعًا لا محيد عنه ، وهذا يدل على مدى الحسرة ، واليأس التي ألمت بالشاعر .

وهنا نلحظ أن الشاعر قال :(تغير حسن الجعفري ، وأنسه) ، فعطف تغيير أنس الجعفري على تغيير حسنه ، ولعل في هذا التعبير إشارة عن تغيير مظاهر الحياة الحسية منها ، والمعنوية في هذا القصر ؛ لأن الحسن يطلق غالباً على الجمال الحسي الظاهر ، وهو يدرك بالعين فقط ، أما الأنس يدرك بالنفوس ، فهو شيء معنوي ، وهذا يدل على أن كل مظاهر الحياة الحسية ، والمعنوية قد تلاشت

(١) لسان العرب ، مادة غير (٥ / ٣٤)

(٢) انظر: تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي ،– مادة جعفر (١٠ / ٤٤٥) ت/ مجموعة من المحققين ، الناشر دار الهداية .

عن هذا القصر .

ويواصل الشاعر انتخاب الألفاظ المصورة ، والمعبرة عن التغيير الذي حلَّ بالمكان فيقول : (وقوض بادي الجعفري ، وحاضره) ، وقوض أي : قلع وأزيل من مكانه [١] ، وبادي الجعفري ظاهره ، من "بَدا الشيءُ يَبْدُو بَدْواً : ظهر" [٢] ، وحاضره : داخله ؛ فالحُضُورُ : ضِدُّ المَغِيب ، والغَيْبَةِ [٣] ، والمعنى : تهدم ظاهرالقصر ، وداخله وهذا نوع من الطباق يسمى بالطباق الخفي . ويبرز جمال هذا الطباق هنا في أنه عرض للصورة في نسق بديع ، وبطريق خفي ، يثير الانتباه إلى الفكرة ، والمعنى المراد ، فيشتد رسوخها في ذهن المتلقي لها؛ إذ الأضداد يُظهر بعضها بعضًا ، وبذلك تزداد الفكرة وضوحًا، والصورة في الذهن رسوخًا .

وفي تكرار اسم (الجعفري) مرتين ، هذا فضلاً عن الضمائر الراجعة إليه والمعبرة عنه في الأبيات التالية ، دلالة على مدى تعلقه الشديد بهذا المكان ، وشغفه به ، ومدى حسرته على ما لحق به ، وكما يقول د/ أبو موسى :" وفي تعدادها ما يكشف عن قوة علقها بنفسه ، وارتباطها بشجنه "(٤) ، " فكأنه يفرغ في هذا التكرار كثيرًا من انفعالاته المتواترة ، وكثيرًا ما يعتمد الشعراء على هذا التكرار ، ويتخذونه وسيلة من وسائل التخفيف ، والإفراغ يلجأ إليها الشاعر "[٥].

---

(١) لسان العرب مادة قوض ٧ / ٢٢٤

(٢) المرجع السابق – مادة بدى ١٤ / ٦٥

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس – مادة حضر (١١ / ٣٧)

(٤) الإعجاز البلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) ، ٢٨٢ .

(٥) قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ، ص ١٩٤ ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط٢ : ١٩٩٨م.

والجملة الثانية (وقوض بادي الجعفري ، وحاضره) إنما جاءت ؛ لتؤكد المعنى الذي دَلَّ عليه الشطر الأول ؛ إذ إن تهدم ظاهر القصر ، وداخله ، ما هو إلا تغيير لمحاسنه ، وأنسه .

وهنا نلحظ ما تحققه واو العطف من قصد التشريك في الحكم ، والتزامن في وقوع الأحداث ، بالإضافة إلى ما فيها من دلالة على تنوع وقوع هذه الأحداث وتعددها .

ولقد علق الدكتور شوقي ضيف على هذه الأبيات بقوله :" فإنك تحس بالقوة ، والعنف في هذا الرثاء ؛ إذ اختار البحتري ألفاظه من ذوات الحروف الضخمة ، أو من هذا النوع الذي يسمونه بالجزل ؛ لأنه غاضب ثائر ، وكان ينحت الألفاظ نحتاً ؛ ليعبر عن هذا الغضب ، وتلك الثورة " (١)

ثم يواصل الشاعر في انتخاب ألفاظه المعبرة ، فيقول :

تَحَمّـــلْ عَنْـــهُ سَـــاكِنُوهُ، فُجَـــاءَةً، فَعَـــادَتْ سَـــوَاءً دُورُهُ، وَمَقَـــابِرُهْ

والشاعر اختار الفعل (تحمَّل) على زنة تفعَّل ؛ ليدل على مدى الثقل النفسي الواقع على سكانيه لحظة ابتعادهم عن هذا المكان ؛ لأن ابتعادهم لم يكن بأيديهم ، وإنما أمر حدث فجاءة ، بفعل القدر، ولا شك أن الفعل (تحمَّل) هو الأنسب ، والأدل على المراد ، دون غيره .

يقول د / فاضل السامرائي في تعليقه على الفرق بين بناء(يفَّعَّل ،

(١) الفن ومذاهبه ، للدكتور / شوقي ضيف ، ص ٨٢ ، طبعة : لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٤هـ .

ويتفعَّل) : " وقد يؤتى بهذا الوزن ؛ للدلالة على التكلف ، وبذل الجهد نحو : تصبَّر ، وتحلَّمَ ، أي : كلف نفسه ، وحملها على الصبر ، والحلم . وفي كلا المعنيين دلالة على الطول في الوقت ، والتمهل في الحدث"(١) .

فلفظ (تحمَّل) بما يحمله من دلالة لغوية يدل على الثقل ، وطول الوقت ، وبما فيه من تضعيف ينقل المشهد ، وكأنه حاضر شاخص أمام العين .

ولهذا اختار في تعديه حرف المجاوزة (عن) دون غيره كـ : من ، مثلاً ليدل على شدة الابتعاد ، والمجاوزة عن المكان .

ولم يكتف الشاعر بذالك ، بل أضاف كلمة (فجاءة) للتعبير ؛ إذ إن اللفظة بدلاتها الصريحة تنقلك إلى المشهد ، كأنك تراه بعينيك .

وهنا نلحظ تقديم الجار والمجرور(عنه) على (ساكنوه) ، فأصل الكلام تحمل ساكنوه عنه فجاءة ؛ وذلك لأهميته عند الشاعر، وهو يتوافق مع مراده ، إذ فيه تصوير لمدى تأثر المكان بهذه الأحداث ، وبخلو ساكنيه عنه دون سابق إنذار .

وهنا نلحظ أن الشاعر قال:(ساكنوه) ، ولم يقل:سكانه ؛ مراعاة لإحساسه بقصر وقت السكنى ، وانصرام عهدها .

وهنا اختار الشاعر(الفاء) الدالة على السرعة ، والسببية في وقوع الأحداث في قوله :(فعادت سواء دوره ، ومقابره) ، فالفاء هنا تصور سرعة وقوع الأحداث

(١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د / فاضل السامرائي ، ص ٤٢ ، الناشر : دار عمار ، ط٢ : ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م .

من ناحية ، وتدل على السببية في وقوعها من ناحية أخرى ، كأن الشاعر يريد أن يقول : إنه لما ابتعد سكان القصر عنه فجاءة بهذه السرعة ، كان هذا سببًا أن أصبحت دور المكان ، ومقابره سواء .

وفي تعبير الشاعر بقوله :(فعادت) دلالة على أن صيرورة المكان على هذا الحالة هو الطبعي بالنسبة له ، بسبب تسلط القدر عليه .

والطباق هنا يُبرز مدى ما في هذا المكان من وحشية ، فقد زاد المعنى به وضوحًا ، وتأكيدًا لمضمونه . وإن كان يحمل حدًا متباعدًا من المبالغة ، إلا أنها تُعدُّ مقبولة في سياقها. إذ إن الغرض هو بيان مدى حسرة الشاعر ، ويأسه على ما لحق بالقصر ، وسكانيه بعد موت الخليفة المتوكل .

والشاعر كان موفقًا في اختياره للمتضادات ، وتحقيق الانسجام بينها في قوله : (بادي الجعفري ، وحاضره ، ودوره ، ومقابره) ، ففي التعبير دلالة على أنه ليس هناك فرق بين ماضي المكان ، وحاضره ، ولا فرق بين دور الأحياء فيه ومثوى الأموات ، وهذا الانسجام بين المتضادات كشف عن مدى حسرة الشاعر ، ويأسه ، وإحساسه بالضياع بعد فقده للخليفة المتوكل ، حيث لم يعد يميز بين المتضادات .

وفي اختيار الشاعر للأفعال المعبرة بصيغتها الماضية (تغيَّر، قوَّض،تحمَّل) دلالة على أن هذا الأمر أصبح واقعًا لامحيد عنه ، وفي تشديد تلك الأفعال دلالة على مدى فجيعة الخطب ، وشدة تلك الأحداث ، وقوتها .

ثم يتحدث الشاعر عن نفسه ، وعن وضع المجتمع من حوله تجاه هذه الأحداث ، فيقول :

إذا نَحْــنُ زُرْنَــاهُ أجَــدّ لَنَــا الأسَــى، وَقَــد كَــانَ قَبــلَ اليَــوْمِ يُــبهَجُ زَائِــرُهْ

والشاعر هنا ينتقل مرة أخرى بنفسه ؛ ليعقد مقارنة أخرى بين ماضي المكان وحاضره ، وهذا التحول من الشاعر ، إنما يدل على ما لحق بالشاعرمن قلق ، واضطراب نفسي جراء ما يراه بعينه ، ويتحرك له قلبه ، ويدل على مدى قدرة الشاعر على تلوين الألفاظ ، فهو يبدئ ، ويعيد ، ويداور بين الكلمات ؛ حتى يصل برسالته التي يعمد أن يصل بها إلى المتلقى ؛ ليشاركه أحاسيسه ، وهذه مقدرة فنية تضاف للشاعر .

ومن هنا يستأنف الشاعر كلامه مخبرًا عن حاله ، وحال كل من حوله بأداة الشرط التي تستعمل في الشرط المحقق الوقوع ،وقد كان موفقًا في اختياره لأسلوب الشرط هنا ؛ ليصور به مدى وقع المنظرعلى أنفسهم وقت زيارتهم للمكان بقوله :(أجدَّ لنا الأسى) ، فالفعل (أجدَّ) بما فيه من تشديد يدل على مدى الفجيعة ، وشدة الخطب ، وبما فيه من دلالة الماضي يدل على مدى تحقق الأسى والحزن ؛ لمجرد رؤيتهم للمنظر.

وفي اختيار الشاعر للفعل (جدَّ) دون غيره ، كظهر مثلا ؛ للدلالة على أن ظهورالأسى أمرمتيقن وقوعه ، قال ابن منظور : " الإِجادُ ، والأُجادُ: طاق قصير وبناءٌ مُؤَجَّد : مقوًّى وثيق محكم ، وناقة مُؤجَدَة : مؤثقة الخلق ، وناقة أُجُد ، أَي: قوية موثقة الخلق " [1] . وفي إسناد الفعل (أجدَّ) إلى الأسى مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث لا يتصور من الأسى أن يكون منه ظهور ، وإنما هو سبب في حصول الأسى ، وهذا يدل على مدى المبالغة فيما وصل إليه الشاعر من الإحساس

(١) لسان العرب – مادة أجد (٣ / ٧٠)

بالأسى ، والحزن من ناحية ، ويدل على مدى ذيوع الحزن والأسى ، وعمومه في المكان من ناحية أخرى .

ونلحظ هنا مدى براعة الشاعر في استعماله لهمزة التعدية في قوله:(أجدَّ) وهى توحي بمدى السرعة في تحقق الفعل ، وظهوره ، وبهذا تكون الهمزة هنا متناسقة مع ما أراده الشاعر من تصوير مدى سرعة ظهور الأسى لذائري هذا المكان ، وسرعان ما يدرك أهلها مدى المأساة التي حلت بالمكان ؛ بحيث أصبح حصيداً كأن لم يغن بالأمس .

والتعبير بلام الاختصاص في قوله :(لنا) وما فيها من دلالة على القصر ، هو الأنسب للسياق ، والمقام ، فكأن هذا الأسى لم يظهر إلا لهم في هذا المكان، وضمائر الجمع هنا تصور الإحساس العام المسيطر على الجميع آنذاك .

ثم تأتي الجملة المقابلة (وقد كان قبل اليوم يبهج زائره) مصدرة بـ (قد) المفيدة للتأكيد ، وجاءت داخلة على الفعل الماضي (كان) الذي يفيد مع التأكيد رسوخ الوقوع في النفس ، حيث صار عقيدة راسخة لا تتزعزع مع مر الأيام .

وفي التعبير بصيغة المضارع في قوله : (يبهج زائره) تصوير ، واستحضار لوقع هذا المكان على زائريه . ولا يخفى ما تحققه صيغة اسم الفاعل في قوله :(زائره) من دلالة على الثبوت ، والاستمرار في الأزمنة المختلفة .

ومن ثَمَّ جاءت الفاصلة المختومة بهاء الغيبة ، والتي تُعبر عن ذات صاحبها في قوله : (زائره) ؛ لتمثل لنا الحالة النفسية المسيطرة عليه ، ومدى ما كان يحسه أثناء زيارته للمكان ؛ مما يُضفى على هذه الفقرة التعبيرية مديحاً ، وإيقاعًا صوتيًا ؛ أدى إلى إطالة التعبير ، مع ما فيها من إيجاز بليغ ، ومن ثَمَّ فهي أشد إثارةً للحس ، ببيان مدى المبالغة عند وقوع الزيارة .

و هنا نلحظ أن الفعل المضارع (يُبهج) الدال على الحال جاء مقترنًا بظرف الزمان (قبل) الدال على الماضي ، فأضفى ظرف الزمان الماضي (قبل اليوم) على السياق دلالتين، دلالة تفيد إرجاع السياق للفعل إلى الزمن الحقيقي للحدوث ، وهو الماضي ؛ مما يوحي بأن حصول البهجة لزائريه قد كانت في الزمن الماضي ، أما اليوم فلا يمكن حدوثها .

فقوله (قبل اليوم) يعد بمثابة الاحتراس [1] عن أن يُظن أن تكون حالته ، وتأثيره في زائريه ما زالت باقية ، ومن ثَمَّ فهو قد قطع كل الظنون ، والشكوك حول حدوث هذا اليوم .

ومن هنا فالجمع بين دلالة المضارع (يبهج زائره) ، وبين دلالة الماضي (كان قبل اليوم) يفيد استحضار الصورة لحدث كان في الزمن الماضي ، مع تأكيد استحالة تحققه في الزمن الحاضر .

(١) الاحتراس: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم (الإيضاح ١/ ٣١٠)

والناظر في البيت يرى أنه يبرز مقارنة بين عهدين ، عهد مضى ، وعهد حاضر، أو مقارنه بين حالين ، حال مضى ، وحال حاضر.

ثم يتمادى الشاعر في وصفه لوقيعة هذه الأحداث على نفسه ، فيقول :

وَلم أنسَ وَحشَ القصرِ، إذ رِيعَ سرْبُهُ، وإذْ ذُعِـــرَتْ أطْـــلاَؤهُ وَجَـــآذِرُهْ

وإذْ صِيـــحَ فيـــهِ بالرّحِيـــلِ، فهُتّكَـــتْ عَلـــى عَجَـــلٍ أسْـــتَارُهُ وَسَـــتَائِرُهْ

وهنا نلحظ أن الشاعر في البيت السابق استعمل ضمائر الجمع ، فقال (إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى) أما هنا فاستعمل ضميرالمفرد الراجع إليه في قوله : (ولم أنس وحش القصر) ؛ ليدل بداية على أن هذا الأسى المسيطر على المكان ، إنما هو شعور مجتمع بأسره ، بعد فقدهم للخليفة المتوكل ، وأن مظاهر الأسى ، والحزن لاحت على كل شيء في هذا المكان ، ولكن في إفراده هنا للضمير المعبر عن ذاته الراجع إليه في قوله : (ولم أنس) فيه إشارة إلى مدى تأثير هذه الأحداث على نفسه خاصة؛ لأن وقوعها فجأة كان هو أول مشاهد لها ، وما زال تأثيرها باقيًا ، ومتجددًا في نفسه ، ولم ينسها مع مرور الأيام ، وهو ما دلت عليه دلالة المضارع في قوله :(ولم أنس) ، ولعل في هذا إيماء ، وإشارة إلى مشاهدته لمقتل الخليفة المتوكل بنفسه ، ومدى فجيعة ذلك على قلبه ، فأراد أن يلفت إليه بالإشارة ، والتلميح دون التصريح ، والتجريح ، هذا بالإضافة إلى ما يحدثه أسلوب النفي في (لم) من إثارة ، وتشويق ؛ " لأن النفس تتطلع عند وقوع المنفي إلى معرفة أسبابه ، وتشغل بالبحث في مضمون الجملة التي وقع فيها النفي، وهذا من شأنه

تأكيد المعني وتمكينه " [١]

و(الوحش) هو ما لا يستأنس من دواب البر [٢] ، فالأمر لم يقتصر على سكان المكان من البشر ، بل شمل الحيوانات . أيضًا . فالأمر شمل المجتمع بأسره ، فالخطب إذن جلل . وهنا نلحظ مدى تحققه واو العطف من الدلالة على التزامن الوقوعي للأحداث ، وتنوعها ، والعطف هنا ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى .

والشاعر هنا يتوالى في استرجاع الأحداث ، ومدى وقعها على نفسه ، وعلى المجتمع من حوله ، فهو يصور أن وقوع تلك الأحداث كان بشكل فجائي ، وليس تدريجيًا ، وهذا ما تدل عليه (إذ) الداخلة على الأفعال الماضية المبنية للمجهول في قوله :(إذ ريع سربه ، إذ ذعرت أطلاؤه وجآذره ، وإذ صيح فيه بالرحيل) ، قال الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى : " إذ إذا جاءت بعد بين تكون للمفاجأة " [٣]

وهنا نلحظ إيثار الشاعر لصيغة الفعل المبني للمجهول في الأفعال السابقة؛ للدلالة على أن غرضه من سوق هذه الأفعال ، هو بيان مدى قوتها ، وتأثيرها في المفعول ، دون النظر إلى الفاعل ، هذا بالإضافة إلى ما تفيده صيغة الفعل المبني للمجهول من دلالة على تأكيد وقوع هذه الأحداث .

---

(١) التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه ، د/بسيونى عبد الفتاح فيود ، ص٧٣ ، مطبعة الحسين الإسلامية (بدون تاريخ) .

(٢) المعجم الوسيط – باب الواو مادة وحش (٢ / ١٠١٧)

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري (دراسة في سمت الكلام الأول) ، د / محمد محمد أبو موسى ، ص ٧٢، الناشر : مكتبة وهبه ، ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م .

وهنا نلحظ . أيضـًا . مدى قدرة الشاعر على انتخاب الألفاظ المعبرة، والمصورة ؛ إذ استعمل ألفاظاً كلها تنتمي إلى قطاع دلالي واحد؛ لتدل على مدى ما أصاب المكان ، وسكانه ، فقال : (ريع سربه [١]) ،والرَّوْعُ : الفَزَعُ ، كالإرْتِيَاعِ ، والتَّرَوُّعِ [٢] ، فالروع فيه دلالة على شدة الخوف ، وشدة الرهبة ، كما أنه قال : (ذعرت أطْلاَؤهُ [٣] وَجَآذِرُهْ [٤]) ، والذُّعْرُ بالضم : الخوفُ [٥]

ونلحظ إيثاره لقوله :(صيح فيه بالرحيل) دون نودي فيه بالرحيل " إذ أن الصياح هو : رفع الصوت بما لا معنى له بخلاف النداء "[٦] ، ففيه دلالة على شدة الصوت المصاحب للأحداث السابقة ، فالشاعر يريد أن ينقل الصورة بكل حيثياتها،وجزئياتها ، ومدى تسلط الطبيعة على كل شيء في القصر بعد موت المتوكل .

(١) (السرب) الفريق من الطير والحيوان (المعجم الوسيط – باب السين ، مادة سرب (١ / ٤٢٥)

(٢) القاموس المحيط ، اسم المؤلف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (١ / ٩٣٤) ، دار النشر : مؤسسة الرسالة – بيروت (بدون تاريخ)

(٣) أطلاؤه (الطلا) الصغير من كل شيء والولد من الناس ، والبهائم ، والوحش من حين يولد إلى أن يتشدد وولد الظبية " (المعجم الوسيط – (٢ / ٥٦٤) مادة طلل باب الطاء)

(٤) والجُؤْذُرُ والجُوذَرُ ولد البقرة وفي الصحاح البقرة الوحشية والجمع جآذِرُ وبقرة مُجْذِرٌ ذات جُؤْذَر (لسان العرب – مادة جذر (٤ / ١٢٣)

(٥) القاموس المحيط – مادة خوف(١ / ٥٠٧)

(٦) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، ص ٣٢٥ ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط ١ : ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م .

ثم يتوالى الشاعر في تصوير الحدث ، فيقول (فهتكت على عجل أستاره وستائره) بتصدير الفعل (هتكت) بالفاء الدلالة على السرعة ، والترتيب في وقوع الأحداث ، بالإضافة إلى دلالتها على السببية ؛ إذ فيها دلالة على أنه بسبب وقوع تلك الأفعال هتكت على عجل أستاره ، وستائره ، أي : تساقطت ، وهذا فيه دلالة بطريق اللزوم على مدى شدتها ، ووقعها حتى إنها أثرت على الجماد ، وكأن شيئاً لم يكن من أساسه .

وهنا نلحظ أن الشاعر قال :(هتكت) دون غيرها ، و "الهَتْكُ : خَرْقُ السِّتْر عما وراءه ، والاسم الهُتْكة بالضم . . . والهَتْكُ : أَن تَجْذِبَ سِتْراً ، فتقطعه من موضعه ، أَو تَشُقَّ منه طائفةً يُرَى ما وراءه " [1] ، فالهتك فيه دلالة على شدة التفكك ، والتمزق ، بخلاف السقوط مثلاً .

كما أنه لم يكتف بدلالة الفاء ، ودلالة الفعل على شدة الهلاك ، وسرعته ، بل نص بقوله : (على عجل) ؛ لمزيد من التدقيق ، والتنصيص على الحالة ، ومدى الفجيعة ، والدهشة المرعبة التي حلت بالمكان ؛ وللزيادة في هذه المبالغة استعمل الناظم حرف الاستعلاء (على) ،فحرف الاستعلاء بما فيه من معنى المجازية ، يساهم في إذكاء المشهد ، وتخيله .

وقوله : (أستار) جمع قلة مفردها (ستر) وهو كناية عن ما كان خاصاً بالخليفة من غرف نوم ، ومنادة ، وقوله : (ستائره) جمع كثرة مفردها (ستارة) ، وهي ما يستر به الشيء ، وهما كناية عن ما زينت به غرف القصر ، وشرفاته ، ومجالس استقبال زائريه ، فيكون قوله : (هتكت على عجل أستار ، وستائره) كناية

(١) لسان العرب – مادة هتك (١٠ / ٥٠٢)

عن الإطلاع على مساوئ القصر ، ومعايبه ، من قولك : وهتك الله سترك : أطلع على مساويك [1]

وهنا نلحظ مدى ما تحققه المجانسة الحرفية بين قوله : (أستاره ، وستائره) ، من تناغم صوتي يضفي على العبارة لوناً من الجمال ، فضلاً على أنه اقتضاه المقام وطلبه المعنى ، واستدعاه ، وساق نحوه ، فصار لا تبتغي به بدلاً ، ولا تجد عنه حولاً ؛ لأنه وقع من غير قصد المتكلم إلى اجتلابه ، وتأهب لطلبه[2]

وفي إيثار الشاعر للجمع بين قوله :(أستار ، وستائر) فيه إشارة على أن الهلاك شمل كل شيء ، ولم يترك أي آثار للزينة في هذا المكان ، وفي هذا دلالة على مدى الأثر الأزلي ، والأبدي المسيطر ، والمهيمن على هذا المكان ؛ جراء ما حدث فيه بعد فقده للخليفة المتوكل ، وفيه إشعار ـ أيضًا ـ بأن ما حدث بالقصر،كان خارجاً عن حد العادة ، وبالغاً حد الكثرة التي لا يمكن تحديد نطاقها ، وأبعادها .

ومما يدل على مقدرة الشاعر الفنية عظمة الأداء الموسيقي في تلك القصيدة ، ومقدرته الفائقة على تكرار الحروف تكرارًا ذا صلة دالة ، وعميقة على حالته النفسية ، وبمضمون أشعاره ، فاتكاء الشاعر على الراء لا يقتصر على الروي فحسب ، وإنما نراه ماثلاً لديه في أبياته من الأول إلى الثامن . . . فبالإضافة إلى وجود الراء في القافية ، فإننا نجدها ماثلة في الكلمات (الدهر ، نذوراً.انبرت ، تراوحه . ربَّ ، ترق ، الجعفري ، دوره ، زرناه ، القصر ، ريع ، سربه ، ذعرت ، الرحيل ، أستاره ، ستائره) ولم يكن اتكاء البحتري على الراء في تلك الأبيات ، وغيرها عبثاً ، أو مصادفة ، فالإمكانيات الصوتية لهذا الحرف تساعد

(١) انظر : أساس البلاغة – مادة ستر (١ / ٢٨٥)

(٢) انظر : أسرار البلاغة ، ص ١١.

الشاعر تماماً في تصوير عواطفه الجريحة المهتاجة ؛ إثر مشهد مصرع نديمه ، والمفيء عليه الخليفة جعفر المتوكل ، فحرف الراء هنا لا يقتصر على إحداث نوع من الموسيقى ، ولكنه مع الهاء الساكنة ، التي تشبه آهة مكتومة ، يلف القصيدة بجناح جنائزي مكثف . (١)

ثم يتوالى الشاعر في وصف نفسه ، ومدى اشتياقه لكل معاني الترف التي كان يحظى بها في هذا المكان ، فيقول :

وَوَحْشَتُهُ، حَتّى كأنْ لَمْ يُقِمْ بِهِ أنيسٌ، وَلَمْ تَحْسُنْ لعَينٍ مَنَاظِرُهْ

وهنا يتحدث عن ذاته من خلال ضمير الذاتية (التاء) في قوله : (ووحشته) فهو بهذا الأسلوب الخبري الذي يفيد التثبيت ، والتقرير ، إلى جانب لفت الأنظار ، وإيثارة الانتباه يحاول أن يصور مدى اشتياقه للعهد القديم في هذا المكان ، ويريد أن يبرز للمتلقي مدى هذا الاشتياق ، وتلك الوحشة ، وأنها قد بلغت ذروتها ، وذلك من خلال استعماله لـ (حتى) الغائية التي تدل على أن هذه الوحشة ، وذاك الاشتياق ، قد بلغا غايتهما ، ونهايتهما لدرجة أن من شدة يأسه لرجوع العهد القديم ، يتخيل كأن شيئا لم يكن ، وهذا يدل على مدى المأساة التي لحقت بالمكان ، وساكنيه ، وأن هذه الوحشة مبنية على التخيل لما مضى ، فلم تكن ثمة حقائق عايشها ؛ ومن هنا استعمل (كأن) التشبيهيه التي تقرب بين المتباعدات ، وتجعل المعنوي على صورة الحسي في قوله : (كأن لم يقم به أنيس ، ولم تحسن لعين مناظره) .

وفي تنكير لفظتي (أنيس ، لعين) إشارة إلى أن الاشتياق قد وصل لدرجة

(١) انظر : البحتري بين نقاد عصره ، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

كأنه لم يقم فيه أي أنيس ، ولم تنظر أي عين لهذا المكان ، ولم تقع لأدنى ، وأقل شيء من أسباب الترف ، والحسن فيه ، وهذا يدل بطريق اللزوم على مدى اليأس،والقنوط من الرجوع للعهد القديم ، بعد فقده المتوكل ، ويدل ـ أيضـًا ـ بطريق اللزوم على مدى الحسرة على ما فاته من أسباب الترف ، والسعادة ، بعد فقده للخليفة المتوكل . . يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين : " وقد تكون العلة في إيثار التنكير على التعريف ، هو أن الغرض إخراجها مخرج الإطلاق عن كل قيد من القيود اللازمة لها من تعريف ، أو تخصيص " (١)

ثم يحاول الشاعر أن يلتقط بعض المشاهد الجزئية التي تُعدُّ بمثابة الدليل على وحشية هذا المكان ، فيقول :

كـأَن لـمْ تَبِـتْ فيـهِ الخِلاَفَـةُ طَلْقَـةً بَشَاشَـتُها،والمُلكُ يُشـرِقُ زَاهـرُهْ

وَلـمْ تَجْمَـعِ الـدّنْيَا إلَيـهِ بَهَاءَهَـا، وَبَهجَتَهـا، والعـيشُ غَـضٌّ مكاسـرُهْ

وهو هنا – أيضـًا – أتى بـ (كأن) التي تفيد قرب وجه الشبه بين الطرفين ، فهو يريد أن يقول : إنه من شدة وحشية هذا المكان ، وشدة منظره المرعب ، كأن شيئاً لم يكن ، وكأن الخلافة ، وما تستوجبه من مظاهر البشاشة ، والزهو قد غيبت عنه،وكأن الملك ، وما يستوجبه من مظاهر القوة ، والإشراق ، والجمال قد تلاشت وكأن الدنيا لم تترك فيه أي شيء من مظاهر البهاء،والبهجة ، فلم يبق في هذا المكان إلا الذكريات المؤلمة .

وجميع هذه الأساليب جاءت في أسلوب كنائي ، وهذا يدل على مدى براعة

(١) من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة ، تأليف : د / عبد الفتاح لاشين ، ص ٢٠ ، الناشر : دار المريخ للنشر ـ الرياض، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

الشاعر ؛ لأن الأسلوب الكنائي له عدة مميزات : –

أولها : أنه يدل بطريقة اللزوم على مدى وحشية المكان ، وفظاعته ، كما أنه في الوقت ذاته لا يمانع من إرادة المعنى الحقيقي ، فـ " الكناية لا تنافي إرادة الحقيقة ، كما لو قلت : فلان طويل النجاد ، وأردت طول نجاده مع طول قامته " (١) .

ثانيها : أن الكنايات تقدم الدعوى بدليلها ، وإنما أكثر الشاعر هنا من استعمال الأساليب الكنائية ؛ لأن الأساليب الكنائية إنما تُعدَّ بمثابة الدليل ، والبرهان المادي على الصفة التي يريد أن يثبتها لهذا المكان ، وما أصابه من وحشة ، وفظاعة ، ولنفسه ، وما أصابها من يأس ، وحسرة ، وفي مثل هذه الكناية يقول الإمام عبد القاهر : " أنهم يرومون وصفَ الرجل ، ومدحَه ، وإثباتَ معنًى من المعاني الشريفة له ، فَيدَعون التَّصريحَ بذلك ، ويُكَنّون عن جعلِها فيه ، بجعلِها في شيءٍ يشتَمِلُ عليه ويتلبَّسُ به . ويتوصَّلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهةِ الظاهرةِ المعروفةَ ، بل من طريقٍ يَخفَى ، ومسلَكٍ يَدِقُّ "(٢) .

ثالثها : أن في تواتر الكنايات على معنى واحد ؛مما يؤكد المعنى المراد ،ويقويه .

ولقد وفق الشاعر في اختيار ألفاظه المعبرة ، فبعد اختياره (كأن)

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، اسم المؤلف: عبد الرءوف المناوي ، ٥ /١٣٢،دار النشر : المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط١ : ١٣٥٦هـ .

(٢) دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ، ص ٣٠٦ ت / محمود محمد شاكر ، الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ : ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .

التشبيهيه التي تقرب بين المتباعدات ، اختار (لم) النافية الداخلة على الفعل المضارع ، والحرف (لم) حين ينفي المضارع يقلب معناه إلى الماضي ، فحين أقول مثلا : لم أشرب ، فمعنى الكلام نفي حدوث الشرب فيما مضى ، وهذا هو الأنسب للسياق والمقام ؛ لأن سياق الكلام هنا سياق مشهد كامن فيما مضى .

كما أنه عبر بالفعل (تبيت) ، ولم يقل : تحل ؛ لأن الفعل (تبيت) لا يكون إلا ليلاً ، " يقال : بَيَّتَ فلانٌ رأْيه : إذا فَكَّرَ فيه ، وخَمَّره ، وكلُّ ما دُبِّر فيه ، وفُكِّرَ بلَيْلٍ ، فقد بُيِّتَ " (١) والليل له مزيد اختصاص بالفواحش ، كما وصفه العلامة السكاكي (٢) ، وهذا أنسب بالمقام وأدعى للسياق .

ولم يكتف الشاعر بنفي عدم استقرار البشاشة فيه ، بل أراد أن يؤكد ، ويصور أنه قد بلغ النهاية في الوصف ، فقال : (طلقة بشاشتها) ، فكأن أقل القليل لم يحظ به هذا المكان .

ثم عطف على ذلك قوله : (والملك يشرق زاهره) وتقديرالكلام : وكأن الملك لم يشرق زاهره ، والكلام فيه إيجاز بالحذف ، فالشاعر أراد أن ينفي عن المكان . أيضاً . كل علامات القوة ، والزهو .

وهنا نلحظ استعمال الشاعر للفظة (الملك) ، دون السلطان مثلاً ؛ ليدل على أن كل ما كان يتمتع به هذا المكان من أسباب القوة ، والملك قد زال ، وأصبح كأنه لم يكن ، فالملك هو القدرة على أشياء كثيرة ، بخلاف السلطان ، هو القدرة

(١) لسان العرب – مادة بيت (٢ / ١٤)

(٢) مفتاح العلوم ، ص ١٧٨.

على أشياء سواء كثيرة ، أو قليلة [١]

والعطف هنا بالواو يدل على مدى التلازم ، والتزامن ، والتشريك في الأحكام بين تلك الأفعال ؛ لأنه ربما يظن أن يكون المغيب عن هذا المكان علامات البشاشة ، والجمال فقط ، ولكنه بهذا العطف نفى عن هذا المكان – أيضًا – كل أسباب الملك والخلافة الظاهرة ، والخفية ، الحسية منها ، والمعنوية ، ثم عطف – أيضًا – قوله :(ولم تجمع الدنيا له بهاءها وبهجتها) وهذا من براعة التصوير ، والتدرج في الوصف من الأقل إلى الأعلى ، أو من الأضعف إلى الأقوى .

ونلحظ هنا في قوله : (له بهاءها ، وبهجتها) تقديم الجار والمجرور ، وهذا على طريق القصر ، وكأن هذا البهاء ، وهذه البهجة لم يكونا في الدنيا إلا لهذا المكان ، وليس لسواه مثلهما ، وميزة القصر هنا أن يخدم المعنى المراد ، ويقويه ، ويتوافق مع السياق ، واللام في قوله:(لها) يوحي بمزيد من الخصوصية ، مما يقوي الأسلوب القصري ، ويدعمه ، وهذا كله فيه كناية عن مدى ما أصاب المكان ، مع ما كان يتمتع به ، وكيفية صيرورة الأشياء على عكس ما كانت .

ونلحظ هنا مدى دقة الشاعر في قوله : (بهاءها ، وبهجتها) وهذا يُعدُّ من باب مراعاة النظير ، فكلتاهما في واد واحد ، كما أنهما يُعدا من باب الجناس الذي يُحدث نوعًا من التناغم الصوتي ، والحيوية ، والنشاط .

ونلحظ هنا أن الشاعر اختار للأفعال الثلاثة السابقة الفعل المضارع(تبيت، يشرق ، تجمع) ، وفي هذا دلالة على حدوث هذه الأفعال مرارًا ، وتكرارًا ، وأن تسلط الزمان على هذا المكان لم يتوقف ؛ إذ إن التعبير بالمضارع ، كأنه يجعل

(١) الفرق اللغوية ص ١٨٢ .

المعنى حاضرًا بين يديك ، وكأن الأفعال المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور ، والأحداث ، فلا تسمعها بأذنك فقط ، وإنما تراها بعينك أيضًا "[1].

وفي قوله : (والعيش غض مكاسره) كناية عن مدى الغصة ، والمرارة التي أحدثها الزمن في نفس الشاعر ، بعد وقوع تلك الأحداث ، من قولهم : فلان غضيض ذليل بَيّنِ الغضاضة ، وعليك في هذا غضاضة ، فلا تفعل ، ولحقته من كذا غضاضة أي : نقص وعيب " [2]

ونلحظ هنا مدى دقة الشاعر في قوله : (والعيش غض مكاسره) ، فالتعبير يدل على التقليل من ناحية ، والتعدد من ناحية أخرى ، التقليل من شأن مكاسره ، وأنها من القلة بمكان ، والتعدد من ناحية الغصة ، والمرارة التي تكون في الحلق عند تناوله .

---

(١) قراءة في الأدب القديم ص ٦٩ .

٢) انظر :أساس البلاغة مادة غضض (١ / ٤٥٢)

السـياق الثانـي:

حديثه عن المرثى ، وما تعرض له من غدر خيانة :

١ـ فـأينَ الحِجـابُ الصّـعبُ،حَيثُ تَمَنّعَـتْ بِهَيْبَتِهَـــا أبْوَابُـــــه وَمَقاصِـــــرُهْ

٢ـ وأيـنَ عَمِيـدُ النّـاسِ فـي كـلّ نَوْبـَةٍ تَنُـوبُ ، وَنَـاهي الـدّهرِ فـيهِمْ وآمـرُه

٣ـ تَخَفّـى لَـهُ مُغْتَالُـهُ، تَحـتَ غِـرّةٍ، وَأوْلَـى لِمَـنْ يَغْتَالُـهُ لَـوْ يُجاهِـرُهْ

٤ـ فمَـا قَاتَلَـتْ عَنْـهُ المَنَايَـا جُنـُودُهُ، وَلاَ دَافَعَـتْ أمْلاَكُـهُ وَذَخَائـرُهْ

٥ـ وَلاَ نَصَـرَ المُعتَـزَّ مَـنْ كَـانَ يُرْتَجَـى لَـهُ،وَعَزِيزُ القَـوْمِ مَـنْ عَـزّ ناصِـرُهْ

٦ـ تَعَـرّضَ ريْـبَ الـدهر مـن دونِ فتحِـهِ، وَغُيـّبَ عَنـهُ فـي خُـرَاسَانَ، طـاهِرُهْ

٧ـ وَلَـوْ عَـاشَ مَيْـتٌ،أوْ تَقَـرّبَ نَـازِحٌ، لَـدَارَتْ مِـنَ المَكْـرُوهِ ثَـمّ دَوَائِـرُهْ

٨ـ وَلَـوْ لعُبَيْـدِ الله عَـوْنٌ عَلَيْـهِمُ، لَضَـاقَتْ عَلَـى وُرّادِ أمْـرٍ مَصَـادِرُهْ

٩ـ حُلُـومٌ أضَـلّتْهَا الأمَـاني، وَمـُدّةٌ تَنَاهَـت ، وَحَتـفٌ أوْشَكـتَهُ مَقَـادِرُهْ

١٠ـ وَمُغْتَصَـبٍ للقَتـلِ لَـمْ يُخْـشَ رَهْطُـهُ، وَلـمْ يُحتَشَـمْ أسْبَـابُهُ وَأوَاصـرُهْ

١١ـ صَـرِيعٌ تَقَاضَـاهُ السّـيُوفُ حُشَاشَـةً، يَجُـودُ بهـا، والمَـوْتُ حُمـرٌ أظـافرُهْ

هذه الأبيات جميعها يجمعها سياق واحد ، وهو حديثه عن الخليفة ، وما تعرض له من غدر وخيانة ، هذا هو السياق الكلي العام للأبيات ، أماالسياق الجزئي ، فيختلف من بيت لآخر اختلافًا يسيرًا، ففي البيت الأول تحدث الشاعرعن ما كان يتمتع به الخليفة المتوكل من قوة المنعة ، والاحتجاب عن الاخرين ، وفي اليت الثاني تحدث عنه ببيان مدى أثره ، فيمن حوله ، ومدى إلتفافهم حوله ،

وإطاعتهم لأمره ، وفي البيت الثالث تحدث عن ما تعرض له الخليفة من غدر ، وخيانة ، وكيف أن الأعداء تربصوا به ؛ ليظفروا بقتله ؟! وفي البيت الرابع تحدث عن تخلي كل سبل النصرة المادية عنه ، وفي البيت الخامس أردف عليها الحديث عن تخلى كل سبل النصرة المعنوية عنه أيضاً ، وفي البيت السادس تحدث عن الحقيقة المرة التي واجهها ، وهي غياب أقرب الناس إليه في خرسان في وقت كان هو في أشد الحاجة إليه ، وفي البيت السابع عاش الشاعر لحظة من التخيل ، أن لو لم يكن حدث شيء مما وقع ، لما تمكن قاتلوه من إلحاق الضرر به ، وفي البيت الثامن تحدث عن مدى ضعف عبد الله بن الفتح بن خاقان عن مواجهة هؤلاء الأعداء ، وفي البيت التاسع تحدث عن هؤلاء القتلة ، وكيف أن عقولهم القاصرة ، أضلتهم ، وأعمة أبصارهم ؟! وفي البيت العاشر تحدث عن هؤلاء القتلة ، وما وصلوا إليه من خسة ، ودناءة ، وكيف أنهم لم يراعوا أواصر القرباة ، ولا صلة رحم ؟!، وفي البيت الحادي عشر تحدث عن ما حدث للخليفة من اغتصاب للقتل ، دون سابق إنذار ، أو حق .

فبعد حديث الشاعر في السياق السابق عن المكان ، باعتباره شاهدًا على مدى المأساة ، والتلاشي التي حلَّت به ، بعد فقد الخليفة المتوكل ، عدل الشاعرعن تلك الصيغ الإخبارية إلى بعض الأساليب الإنشائية ، وبدأ الحديث عن المرثى دون توطئة أو تمهيد ؛ لبيان مدى وقع الفجيعة على نفسه ، فقال :

فـأينَ الحِجـابُ الصّـعبُ، حَيـثُ تَمَنّعَـتْ بِهَيْبَتِـــهَا أبْوَابـــهُ، وَمَقاصِـــرُهْ

وأيــنَ عَمِيـدُ النّـاسِ فــي كـلّ نــوْبَةٍ تَنُـوبُ، وَنَـاهي الـدّهرِ فـيهِمْ ،وآمـرُه

تَخَفّــى لَــهُ مُغْتَــالُهُ، تَحــتَ غِــرّةٍ، وَأوْلَــى لِمَــنْ يَغْتَالُــهُ لَــوْ يُجَــاهِرُهْ

فأسلوب الاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى فرعى ، وهو الاستنكار، فهو يحمل دلالة استنكارية تتواءم مع إحساس الشاعر بقوة الفجيعة ، والخطب المهيمنين عليه ، فمع ما يتمتع به المكان، والفقيد من قوة المنعة ، والعزة أصبح كأن شيئاً لم يكن .

وهنا نلحظ مدى مبالغة الشاعر في تصويره المكان بقوله :(فأين الحجاب الصعب) فلم يكتف الشاعر بقوله :(الحجاب) ، بل أضاف إليه وصفـًا ، وهو(الصعب) ؛ لتأكيد منعة المكان ، وقوته ، ثم أتى بقوله : (حيث تمنعت بهيبتها أبوابه ومقاصره) ، وهذه الجملة تعد بمثابة الدليل على مدى عزة هذا المكان ، وهيبته .

وهنا نلحظ مدى حرص الشاعرعلى انتقاء الألفاظ التي تخدم غرضه المروم بقوله (تمنعت) ، والفعل (منع) يفيد قوة الاحتجاب عن الآخرين ، يقال: " ومَنُعَ الشيءُ مَناعةً ، فهو مَنِيعٌ : اعتَزَّ ، وتعسَّر ، وفلان في عِزٍّ ، ومَنَعةٍ . . . وقد تمنَّع ، وامرأَة مَنِيعةٌ متمنِّعةٌ : لا تؤاتى على فاحِشةٍ " (١) .

هذا بالإضافة إلى ما في الفعل من تضعيف يفيد قوة اتصاف الصفة بالموصوف، والباء في قوله : (بهيبتها) للمصاحبة ، أي : إن هيبة المكان ، وما يتصف به من صفات ذاتية هي التي اكسبته هذا الاحتجاب ، وتلك المنعة .

وقوله : (أبوابه ومقاصره)(٢) بصيغة الجمع ، مفيد للمبالغة ، والاستيعاب

(١) لسان العرب مادة منع (٨ / ٣٤٣)

(٢) المقاصر : هي دار واسعة مُحَصَّنة الحيطان ، فكل ناحية منها على حِيالِها مَقْصُورة (المرجع – مادة قصر (٥ / ٩٥)

لكل شيء في المكان ، حيث إن الامتناع هنا لكل شيء في القصر . والعطف بالواو يفيد مدى التلازم في الوصف ، والتشريك في الحكم .

وهذه الأوصاف التي خلعها الشاعر على المكان ، وما كان يتمتع به كلها تفيد بطريق اللزوم مدى قدرة الزمان ، والطبيعة على التحكم في مصير الإنسان ، فمع ما يتمتع به هذا المكان من قوة الاحتجاب أصبح أمام تحطم الزمان أثرًا بعد عين .

وبعد بيان الشاعر مدى تحكم القدر في المكان عطف عليه قوله :(وأينَ عَمِيدُ النّاسِ في كلّ نوبة تَنُوبُ، وَنَاهي الدّهرِ فيهِمْ وآمرُه) ؛ ليبين مدى تحكم القدر . أيضًا . في مصير المرثى . وهو الخليفة المتوكل . فحاله كحال المكان تمامًا ، ومن هنا جعل الشاعر يغالي في وصفه للممدوح ، بما خلعه عليه من صفات رُبَّما تخرجه من باب المبالغة إلى الغلو ، وعدم الصدق ، بل خروجه عن المعهود ، والمنطق الإسلامي ، وهذا كله يدل على مدى إجلاله للمرثى ، واعتزازه به ، فقد جعله عميدًا للناس في كل نوبة تنوب ، وجعله ناهي الدهر فيهم ، وآمره ، فقوله : (عميدًا للناس في كل نوبة تنوب ، وناهي الدهر فيهم ، وآمره) كنايتان عن مدى تأثيره فيهم .

وانظر إلى براعة الشاعر ، ودقته في استعمال المفردات ، وتوظيفها بما يوافق السياق ، ويخدم المقام ، ومن ذلك إضافة لفظة (كل) إلى النكرة التي تفيد العموم والشمول في قوله :(نوبة) ، يقول الدكتور/ عبد الغني محمد بركة : " إن هذا الإبهام والعموم الذي تتضمنه النكرة في دلالتها ، منحها مرونة كبيرة في الاستجابة لما يوحي به السياق ؛إذ يضفي عليها ظلالاً تميل بها إلى الإفصاح عن معان تتولد منها بمعونة القرائن ، ومن هنا تعددت المعاني التي يوصي بها التنكير

من خلال استجابتها لما يومئ إليه السياق ، ويتطلبه "[1].

وفي التعبير بلفظة (كل) وما توحي به من دلالة على العموم ، إشارة إلى سريان هذا الأمر، وإطلاقه على جميع قومه صغيرهم ، وكبيرهم ، غنيهم،وفقيرهم.والتعبير بحرف الظرفية،وما فيه من دلالة على الإحاطة،والشمول لكل نوبة ، مما يتلاءم مع المراد ، ويتوافق مع المقام .

والجملة تُعَدُّ توكيداً ضمنياً يوحي به عموم العبارة ، وما اشتملت عليه من تشخيص دقيق بحيث لا تحتمل الجملة من المعاني إلا وجهاً واحداً يفيد الجزم، والحسم ، والتوكيد ، بما يمثله الخليفة المتوكل فيهم ، كما أن التأكيد لهذه الحالة يكون على جهة التجدد ، والاستمرار، كما دلت صيغة المضارع في قوله :(تنوب) " والفعل المضارع يدل على وقوع الحدث الآن ، وهذه دلالته الأصلية ، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها ، وكأن العين تراها ، وهى تقع "[2] .

وانظر إلى عدول الشاعر عن المضارع إلى التعبير باسم الفاعل في قوله: (ناهي الدهر فيهم ، وآمره) لما فيه من دلالة على الملازمة ، والثبوت ، وهو يجيء متناغمًا مع السياق ، ومتلائمًا مع المراد . واستعمال حرف الظرفية (فيهم) يساهم في إذكاء المراد ؛ إذ يُعَدُّ تصويراً بديعاً لمدى ارتباطهم به ، والتفافهم حوله ، ومدى تأثيره فيهم .

---

(١) مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث ، د/ عبد الغني محمد بركة ، ص١١٠ ، ط١ : دار الطباعة المحمدية ، ١٩٨٩م .

٢) خصائص التراكيب ، (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د / محمد محمد أبو موسى ، ص٢٦٤ .، الناشر / مكتبة وهبه ، ط٨ : ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م .

هذا بالإضافة إلى ما يحققه أسلوب التضاد بين (ناهي ، وآمر) فهو يزيد المعني وضوحاً ، والمراد بياناً ، والغرض تحديداً ، فالمقابلة تؤكد المعني، وتقرره عند المخاطب . والعطف بين الجملتين للتوسط بين الكمالين ؛ لاتحاد الجملتين في الخبرية لفظًا ، ومعنى.

وهذا الكلام يعد من قبيل تجاهل العارف [1]، إذ إن الشاعر صاغ هذه الجمل بصيغ استفهامية ، ثم يجيب على نفسه بنفسه ، فيقول :

تَخَفّى لَهُ مُغْتَالُهُ، تَحتَ غِرّةٍ، وَأَوْلَى لِمَنْ يَغْتَالُهُ لَوْ يُجَاهِرُهْ

وهنا يعلل الشاعر لسبب فقد المرثى بما تعرض له من غدر ، وخيانة ، واختار الشاعر لذلك التعليل أفعالاً لها دلالتها الايحائية ، فقال :(تخفى) فالفعل بما فيه من دلالة على التستر والخفاء يوحي ببشاعة الفعل ، ووضاعة الفاعل ، واللام في قوله (له) توحي بمدى التربص له ، والحرص على اغتياله مرارًا ، وتكرارًا .

ولم يكتف الشاعر بذلك ، بل أضاف قوله :(تحت غرة) ؛ لتأكيد الحالة التي عليها المغتال ؛ وليدل على أنه لولا حرصه على التخفي ، والتربص ، والتستر ؛ للنيل من المتوكل لما ظفر بمراده ؛ لأنه أجبن من أن يواجهه عيانًا ؛ ولهذا أشار إليه بما كان يجب عليه أن يفعله ، فقال له :(وأولى لمن يغتاله لو يجاهره) ، وهذا التفضيل في قوله : (وأولى) قصد به الشاعر مدى مخالفة المغتال للعادات ، والتقاليد ، والمبادئ ، والقيم المتعارف عليها ، فكان أدعى ، وأولى لمن يريد قتله أن يواجهه صراحة . والتضاد بين قوله :(تخفى) ، وقوله : (يجاهره) أدل على

(١) تجاهل العارف : وهو سوق المعلوم مساق غيره لنكتة (ينظر : مفتاح العلوم ، ص١٨٥ ،والإيضاح ٦ / ٨٤)

المراد ، وأوفى بالمقصود ، ويبين مدى التناقض بين الحالتين عند الشاعر ، والبيت إنما صيغ بأسلوب خبري هنا ؛ لتوكيد المعنى ، وتقويته .

وفي التعبير بالماضي في قوله :(تخفي) فيه دلالة على أن فعل التخفي والتستر للنيل من المرثى استمر فترة طويلة ، كما أن التعبير بالمضارع ، والمصدر المؤول في قوله :(لمن يغتاله لو يجاهره) فيه إشارة إلى عدم قدرة الشاعر على مواجهة القاتل الحقيقي صراحة بالفعل ، بل ساقه مساق الفعل الدال على التجدد والحدوث ، والذي لم يقع ، كما أن التعبير بالمضارع ، والمصدر المؤول هنا ينقل لنا نفسية الشاعر ، وآنانه ، وهو يتلفظ بتلك الألفاظ ، فصورة المشهد التي قتل عليها المتوكل لا تفارق خياله ، وهذه ثقة منه في أنهم لو واجهوا المرثى صراحة ما ظفروا منه بأي شيء .

وبعد أن تحدث الشاعر عن ما حدث للخليفة أعقب ذلك بالحديث عن تخلي كل سبل النصرة عنه ، وذلك من خلال أسلوب النفي الذي يوحي في بداية الأمر على مدى تخلي كل سبل النصرة ، والمعونة عنه بكل وسائلها المادية ، والمعنوية ،فقال :

فَمَا قَاتَلَتْ عَنْهُ المَنَايَا جُنُودُهُ، وَلاَ دَافَعَتْ أَمْلاَكُهُ وَذَخَائِرُهْ

وَلاَ نَصَرَ المُعتَزَّ مَنْ كَانَ يُرْتَجَى لَهُ، وَعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزّ ناصِرُهْ

وهنا نلحظ إيثار الشاعر للصيغ الماضية بجانب أسلوب النفي ؛ لدلالة على مدى حتمية الحدث ، وأنه أصبح أمرًا واقعيًا لا محيد عنه ، فقال :(فما قاتلت عنه المنون جنوده) ؛ وليدل على مدى عجز جنوده عن مواجهة الموت .

وفي تقديم الجار والمجرور على الفاعل ، في قوله :(فَمَا قَاتَلَتْ عَنْهُ

المَنَايَا جُنُودُهُ) فأصل الجملة : فما قاتلت جنوده المنونَ عنه ، وهذا التقديم يدل على أن الغرض المسوق له الكلام هو بيان مدى عجز المرثى ، وعجز كل وسائل المنعة ، والعزة لديه أمام قوة المنون .

وفي التعبير عن المرثى بضمير الغيبة في قوله :(عنه ، جنوده ، وأملاكه ، ذخائره) ملائمة للسياق والمقام ؛ وإشارة إلى أن المرثى أصبح أثراً بعد عين ككل شيء حوله ؛ ولذالك اكتفى بالإشارة إليه بالضمير المعبر به عنه دون التصريح به .

كما نلحظ أن الشاعر أسند الفعل (قاتلت) إلى تاء التأنيث مع أن الفاعل جمع للمذكر العاقلٍ ، ولعل في التأنيث هنا إشارة من بادئ الأمر إلى مدى ضعف جنوده أمام قدرة المنون . وفي إيثار الشاعر لصيغ الجمع في قوله :(جنوده ، أملاكه ، ذخائره) إشارة إلى تعدد ، وتنوع وسائل الدفاع ، والذود عن الخليفة ، إلا إنها مع تعددها وتنوعها عاجزة عن الدفاع عنه .

وبعد أن عبر الشاعر عن عجز الوسائل المادية التي وضعها الخليفة للدفاع ، والذود عنه أردف ذلك إلى بيان تخلي الضمير الإنساني عنه – أيضًا – من خلال أسلوبي النفي ، فقال :

وَلاَ نَصَرَ المُعتَزَّ مَنْ كَانَ يُرْتَجَى لَهُ، وَعَزِيزُ القَوْمِ مَنْ عَزّ ناصِرُهْ

وانظر هنا بلاغة الجناس بين(المعتز،عزيز،عز) ،وبين (نصر، وناصره) وما يحققه من إقناع ، وتأثير في المتلقي ، ومن فيه نبرة صوتيه تحقق الانسجام، والإمتاع .

وفي تكرار العطف بالواو بالإضافة إلى ما فيه من دلالة على التزامن في

وقوع الأحداث فيه دلالة . أيضـًا . على مدى تزاحم وقوع هذه الأحداث على نفسية الشاعر ، ومدى ما أصابه من يأس ، وحسرة .

وقوله :(وعزيز القوم من عز ناصره) يعد من أساليب الحكمة التي تعد متنفسـًا للشاعروسط هذه اللجة من اليأس . ولعل في هذا القول تعريضاً بابن المتوكل الذي شارك في قتل أبيه ؛ رغبة في الوصول للخلافة ؛ لأنه بفعلته هذه لم ينل العزة والكرامة ؛ لأن هذه العزة التي وصل إليها إنما كانت على حساب ناصره وأقرب الناس إليه ، وهو أبوه .

وفي تكرار النفي في قوله : (فماقاتلت ، ولادافعت ، ولانصرالمعتز) تأكيد للمراد من بيان عجز كل وسائل النصرة ، والمنعة للمرثي ، والعطف بين هذه الجمل لما بينها من التوسط في الكمالين ؛ لاتفاقها في الخبرية لفظاً ، ومعنى .

وفي بناء كل هذه النظم على أسلوب النفي ؛ لتفجيع فعائلهم ، وتشنيع مدى شناعة موقفهم ؛ إذ إن صاحب العزة الحقيقية في قومه لا بد وأن يتحلى بما يقابل هذه الصفات .

وهنا نلحظ براعة الشاعر في قدرته على انتخاب ألفاظه ، وبناء تراكيبه ، وذلك بإيثاره للأفعال الماضية (قاتلت ، دافعت ، نصر) ؛ ليشعر القارئ معه بما يحسه من حسرة ، ويأس على انقطاع كل وسائل النصرة للمتوكل .

وهنا نلحظ . أيضـًا . مدى براعة الشاعر في تصديره ، وتصويره للبيت الأول للفاء التي تدل على السرعة ، والسببية في قوله :(فما قاتلت) ؛ فكأنه بالفاء يريد أن يصور سرعة تخلي جنوده عنه ، وأن هذا التخلي بتلك الصورة ، وبهذه السرعة هو السبب الرئيس في نيلهم منه ، وقتله ، ثم عطف بعد ذلك الجمل الواقعة

بعدها بالواو ؛ للدلالة على التزامن في وقوع الأحداث ، والتشريك في الوصف ، والاندراج في الحكم .

ثم يتحدث الشاعر عن الحقيقة المرة التي واجهها المرثى ، وهو غياب ، وتخلي أقرب الناس عنه ، فكما أن المكان إقفر بسبب نزوح سكانه عنه ، فإن تلاشي المرثى إنما حدث نتيجة تخلي ناصريه ، ومعاونيه عنه ، فيقول :

تَعَرّضَ ريب الدهر من دونِ فتحِهِ، وَغُيّبَ عَنهُ في خُرَاسَانَ،طاهِرُهْ

وَلَوْ عَاشَ مَيْتٌ، أوْ تَقَرّبَ نَازِحٌ، لَدَارَتْ مِنَ المَكْرُوهِ ثَمّ دَوَائِرُهْ

وَلَوْ لعُبَيدِ الله عَوْنٌ عَلَيْهِمُ، لَضَاقَتْ عَلَى وُرّادِ أمْرٍ مَصَادِرُهْ

فالشاعر يريد أن يصور مدى تعرض الزمان للمرثى ، فقال :(تعرض ريب الدهر) ، " والرَّيْبُ : صَرْفُ الدَّهْرِ ، والرَّيْبُ والرِّيبةُ : الشَّكُّ ، والظِّنَّةُ ، والتُّهْمَةُ " [1] ، وهنا نلحظ براعة الشاعر في اختياره للفظة الريب ، دون غيرها ؛ لما يُتوهم فيها من المكر، وعدم الأمان ، قال تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [2] ، وفي التعبير مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث إن الدهر لا يتصور منه التعرض لأحد بالحوادث ، إنما يكون سببًا في ذلك ، ويمكن حمل الكلام على سبيل الاستعارة المكنية ، حيث شبه الدهر بإنسان دائمًا التعرض للمُرثَى ، ثم حذف المشبه ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو التعرض ، وعلى كلٍ فالمراد هو بيان مدى حرص الدهر على التعرض له ؛ لإلحاق الضرر به.

(١) لسان العرب مادة ريب (١ / ٤٤١) .

(٢) سورة التوبة الآية ١١٠ .

وقوله : (من دون فتحه) يمكن أن يُحمل الكلام على أن المراد بالفتح هنا هو انتصار الدهر للممدوح ، وبهذا يكون الضمير في (فتحه) راجع إلى الدهر ذاته ، ويكون المعنى : أن الدهر دائم التعرض للممدوح ، دون أن يناصره .

وربما يكون كلمة (فتحه) إنما هي علم على الفتح بن خاقان الذي قُتل مع المتوكل في تلك الواقعة [١] ، ويكون الضمير في(فتحه) عائدًا على المتوكل ، وتكون إضافة (الفتح) إلى الضمير العائد على المتوكل ؛ لبيان مدى قوة الترابط بين المتوكل ، وبين الفتح بن خاقان ، وبهذا يكون الدهر قد اختار الوقت المناسب للتعرض للممدوح ؛ حيث تعرض له دون أن يكون معه ناصره ومعاونه ، وهو الفتح بن خاقان ، وإنما تعرض لكل واحد منهما على حدة ، كما أنه تعرض له في وقت تغيب الطاهر بن عبد الله في خراسان عنه[٢] .

وهنا نلحظ مدى براعة الشاعر في انتخابه ألفاظه بقوله : (وَغُيّبَ عَنهُ في خُرَاسَانَ) ، فالتضعيف لعين الفعل ، تدل على مدى المبالغة في شدة ابتعاده عنه ، كما أن النظم اختار التعبير بحرف المجاوزة (عنه) ، ولم يقل في خراسان مثلاً ؛ للدلالة على مدى البعد بين الطرفين ، وشدة تأثيره على المرثى .

ثم يعيش الشاعر لحظة من التخيل ، وذلك من خلال أسلوب الشرط (لو) الذي هو حرف امتناع لامتناع ، فهو يعلم جيدًا أن هذا الأمر صعب وقوعه ، ولكن

---

(١) الديوان ٢ /١٠٤٧ .

(٢) انظر : تاريخ الخلفاء ، المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي١/ ٣٠١ ، ت : محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر : مطبعة السعادة – مصر ، ط١ :، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تأليف / محمد فريد بك ، ١ / ٤٧ ، الناشر دار النفائس . بيروت .

ساق الكلام مساق الافتراض ، فهو يتخيل أن ما حدث لو لم يكن حدث ؛ لتغيرت خريطة الزمان ، فلو لم يكن مات الفتح ، ولو لم يتغيب الطاهر ، لما تمكن قاتلوا المتوكل من إلحاق المكروه به ، وهذا يدل على مدى قوة الفتح بن خاقان ، والطاهر بن عبد الله ، ومدى تأثيرهما ، وحرصهما على حياة الخليفة المتوكل ، ويدل . أيضًا . على مدى مكر قاتلوه ؛ حيث إنهم تخيروا الوقت المناسب للغدر به .

وقوله :

وَلَـــوْ لعُبَيْـــدِ الله عَـــوْنٌ عَلَـــيْهِمُ، لَضَـــاقَتْ عَلَـــى وُرّادِ أمْـــرٍ مَصَـــادِرُهْ

يدل على مدى ضعف عبد الله بن الفتح بن خاقان ، وعدم قدرته على الدفاع عن المرثى ، وهذا ما تفيده دلالة التصغير في قوله :(عبيد الله) فلو كان له قدرة عليهم لضاقت على قاتليه كل السبل للوصول إليه .

وفي التعبير بحرف الاستعلاء (على) في قوله :(لَضَاقَتْ عَلَى وُرّادِ أمْرٍ مَصَادِرُهْ) دلالة على مدى انكبابهم على هذا الأمر ، وحرصهم الشديد عليه .

وفي التعبير بلفظ الورود دلالة على محاولتهم ، وتكرارهم ذلك مرارًا ، كما أن في تنكير لفظ (أمْرٍ) دلالة على مدى حقارة هذا الأمر؛ حيث إنه كان عن طريق الغدر ، والخيانة.

وفي التعبير بلفظ (مصادره) دلالة على أنهم استعملوا كل الطرق ، والحيل للوصول إلى المتوكل ، وأن الوصول إليه لم يكن بالأمر السهل ، بل إنهم تحينوا الفرصة ؛ للغدر به وقت تغيب معاونوه ، وناصروه عنه .

ثم يستفيض الشاعر في حديثة عن هؤلاء الغادرين ، وكيف أنهم لم يراعوا أي أسباب للأواصر ، والقرابة ، فقال :

حُلُـــومٌ أضَـــلَّتْهَا الأمَـــانِي، وَمُـــدّةٌ تَنَاهَـــتْ ، وَحَتـــفٌ أوْشَـــكتَهُ مَقَـــادِرُهْ

وَمُغْتَصَـــبٍ للقَتْـــلِ لَـــمْ يُخْـــشَ رَهْطُـــهُ، وَلَـــمْ يُحتَشَـــمْ أسْبـــابُهُ وَأوَاصِـــرُهْ

صَـــرِيعٌ تَقَاضَـــاهُ السّـــيُوفُ حُشَاشَـــةً، يَجُـــودُ بهـــا ، والمَـــوْتُ حُمْـــرٌ أظـــافرُهْ

فقوله : (حلوم) بصيغة الجمع فيه دلالة على التعدد ، وفي هذا إشارة إلى كثرة أعدائه الذين يريدون الغدر به ، كما أنه في التعبير بـ (الحلوم) دون العقول مثلاً دلالة على التقليل من شأنهم ، والتهوين من أمرهم ، والكلام مبني على حذف المسند إليه ، والتقدير : هي حلوم ، والحذف هنا ؛ للمسارعة إلى المطلوب ، حيث إن المقام لا يستدعي الإطالة ، والبسط في الحديث عن هذه الفئة .

وقوله :(أضلتها الأماني) من قبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية ؛ إذ أن الأماني ليست هي الضالة لتلك العقول ، وإنما هي سبب في ضلالها ، والتعبير بصيغة (أفعل) في قوله : (أضلتها) دون أن يقول : ضلتها ؛ للدلالة على قوة الضلال الذي ألحقته تلك الأماني لهذا العقول ، وقوة تأثيرها فيها، كما أن فيه دلالة على المبالغة ، والتكثير من الحدث ، وهذا التعبير أشد ملائمة للسياق ، والمقام .

وفي التعبير بالمدة في قوله : (مدة تناهت) فيه دلالة على قصر هذه المدة التي عاشها مع المتوكل ، وصيغة المفاعلة في قوله :(تناهت) بما فيها من دلالة على الاحتفاء ، والمسارعة إلى المفعول ، فيها دلالة على مدى سرعة زوال هذه المدة ، وكأنها لم تكن بالفعل .

والتعبير بألف الإطلاق في قوله : (تناهت) ولم يقل : انتهت ، يستدعي التوقف أمام سرعة هذا الانتهاء ، وقصر هذه المدة ، ومدى تأثيرها على نفسية

الشاعر .

وقوله : (وحتف أوشكته مقادره) كناية عن مدى قوة الأقدار على التحكم في مصير الإنسان ، والحَتْفُ الموت [١] ، والمعنى : أن الموت أصبح أمرًا لا محيد عنه .

ويجيء قوله :

وَمُغْتَصَبٍ للقَتلِ لَمْ يُخْشَ رَهْطُهُ، وَلَمْ يُحتَشَمْ أسْبَابُهُ وَأوَاصِرُهْ

ولقد بدأه الشاعر بأسلوب خبري ، والغرض من الأسلوب الخبري هو إعلام المخاطب الفائدة من الخبر .

والتعبير بـ "الاغتصاب " كناية عن أخذه القتل بالقوة ، والعنف ، وظلماً دون سابق حق . واختيار الشاعر هذا الفعل (غصب) يدل على دقة الشاعر في اختيار مفرداته ، وعنايته بها ؛ لتؤدي دورها في توصيل المعني في إطار من الوضوح ، والتركيز ، والإيجاز البليغ ، والتعبير بالكناية يجسد المشهد ، ويوقف السامع على صورة منه ، كأنه يشاهده ، ويري معالمه ، ويشعر بآثاره ، ويعرف نتائجه ، فـ " الغَصْبُ : أَخْذُ الشيءِ ظُلْماً ، غَصَبَ الشيءَ يَغْصِبُه غَصْباً ، واغْتَصَبَه ، فهو غاصِبٌ وغَصَبه على الشيءِ : قَهَرَه ، وغَصَبَه منه ، والاغْتِصَابُ مِثْلُه " [٢] ، كما أن التعبير بالاغتصاب فيه إشارة إلى أن المغتصب للقتل يشعر بالدونية عن المقتول ، وعدم الكفاءة في نفسه ، حتى يواجهه عنوة ؛ لذلك يتخذ من الاغتصاب وسيلة للوصول إلى ما يصبوا إليه .

(١) لسان العرب ، مادة حتف – (٩ / ٣٨)

(٢)لسان العرب ، مادة غصب (١ / ٦٤٨)

والتعبير باسم المفعول (مغتصب) فيه تمكين للوصف ، وإثباته للموصوف ، يقول د أبو موسى : " إن اسم المفعول أكثر توكيداً للمعنى ، وإثباتًا له ، وتقريرًا " (١)

واللام في (للقتل) تدل على الاختصاص ، والاختصاص هنا يضفي على المعنى قوة ، ويزيده توكيداً ، وهذا يدل على عظيم جرمهم ، وبشاعة فعلهم .

وفي بناء الفعلين (يُخشى ، يُحتشم) للمجهول يدل على استحكام الفعلين في حقهم هذا بالإضافة إلى أن بناء الفعل للمجهول ، يجعل السامع يركز على الفعل فقط ، دون الفاعل ؛ لأن الفعل هو المقصود ، وهو المبرز للقوة ، والشدة في حدوثه ، وبذلك يتركز المعني فى ذهن السامع ؛ حيث منحه صورة حسية يسهل تذكرها ، ويقوي تعلقها بالذهن ، ويقرب معناها إلى عقل المتلقي .

وفي التعبير نوع من الإيغال ؛ للإيفاء بحق المعنى ، والمبالغة فيه ، فلم يكتف الشاعر بقوله : (لم يخش رهطه) ، بل عطف عليه بقوله : (ولم يحتشم أسبابه وأواصره) ؛ ليدل على أن القاتل بلغ من الخيانة ، والغدر ، والاغتصاب للقتل مبلغًا فاق كل الأوصاف ، فلم يخش قرابة ، ولم يستح من أي أسبابٍ لأواصر الرحم .

وفي دخول النفي على الفعل المضارع في قوله :(لم يخش رهطه) ، وقوله :(ولم يحتشم أسبابه ، وأواصره) فيه تصوير ، وتشخيص للموقف ، وإبرازه للمتلقي جليًا كأنه يراه ، ويواقعه ، وهذا يدل على مدى فداحة فعلهم ، وبشاعة أمرهم .

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد محمد أبو موسي ، ص ٢٢٨، ، الناشر : مكتبة وهبة، ط٢ : ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٩م

وتكرار الفعل منفياً في قوله : (لم يخش رهطه) ، وقوله : (ولم يحتشم أسبابه وأواصره) يؤكد على سيطرة الخيانة ، واستحكام الغدرفي حقهم ، حتى فاقا كل الأوصاف .

ونلحظ هنا أن الشاعر بعد اختياره لصيغة الماضي في قوله : (أضلها ، وتناهت) اختار صيغة المضارع في قبوله : (أوشكته ، يخشى ، يحتشم ، تقاضاه، يجود بها) وذلك لاستحضارالصورة ، وتجسيد المشهد أمام المتلقي ، وكأنه يلاحظه بعينيه ، ويدركه بناظريه ، كما أنه يريد بعد نقله للمشهد من الماضي الغابر إلى الحاضر المشاهد أن ينقلنا إلى نفسيته ، وهو ينشد تلك الأبيات، ويجعلنا نحس بإحساسه ، ونتألم بآلامه .

وفي قوله :

صَرِيعٌ تَقَاضَاهُ السّيُوفُ حُشَاشَةً، يَجُودُ بها، والمَوْتُ حُمْرٌ أظافرُهْ

حذف للمسند إليه ، والتقدير: هو صريع ، ولعل الحذف هنا ؛ لغرض الإسراع إلى المطلوب ، فالموقف لا يستدعي الإطالة فيه ، والتنويه به أكثر من ذلك ، فالمحذوف يملأ القلب ، والخيال ، وليس هناك أي داع للتنصيص عليه .

وهنا نلحظ مدى قدرة الشاعر على انتخاب ألفاظه ، وبناء تراكيبه ، فقوله: (صريع) من (صرع) ، و" الصَرْعُ : الطَّرْحُ بالأَرض "[1] ،قال تعالى : (فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)[2] والمعنى : سقط صريعًا يتخبط في دمه ، وفيه تصوير للمرثى ، وهو يعاني مرارة القتل ، وقسوته ، فقوله : (صريع) يصوره

(١) لسان العرب – مادة صرع (٨ / ١٩٧)

(٢) سورة الحاقة الآية ٧ .

وكأن القتل لم يحدث مرة واحدة ، بل حدث بعد مسارعة معه ، والتعبير بصيغة المبالغة (فعيل) هي الأليق ، والأنسب بهذا المقام .

وقوله:(تقاضاه السيوف حشاشة) كناية عن إتمام القتل ، والفراغ منه ، حتى أخرج منه ما في حشاشته ، " وقَضى في اللغة على ضُروب كلِّها ترجع إلى معنى انْقِطاعِ الشيء ، وتَمامِه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ثم قَضَى أَجَلاً﴾ (١) معناه : حَتَم بذلك ، وأَتَمَّه " (٢)

وقوله : (تقاضاه) من الأفعال التي تدل على المشاركة ، والصيغة المستعملة هنا (تفاعل) تدل على المطاوعة في الفعل ، والموافقة عليه . كما أن التعبير بألف الإطلاق في قوله :(تقاضاه) بما فيه من نبرة صوتيه يزيد من تصوير مدى بشاعة الصورة ، وإبرازها جلية ؛ مما يكون له أكبر الأثر في المتلقي.

وفي قوله : (يجود بها) استعارة مكنية ، حيث شبه السيوف ، وكأنها إنسان يجود على القاتل بكل ما يمتلك ؛ للوصول إلى حشاشة المقتول ، والقضاء عليه .

وقوله : (حشاشة) بما فيه من تنوين فيه دلالة على التفرد ، وأن حشاشة المرثى هى المقصودة بذاتها من قبل السيوف ، والجمع في لفظة (السيوف) فيه دلالة على كثرتها.

وفي قوله : (بها) الجار والمجرور هنا يفيد المصاحبة ، فالجود هنا إنما هو بأحشاء المرثى ، فالتعبير بكل ما فيه ، فيه تجسيد للمشهد ، واستحضار

(١) سورة الأنعام من الآية ٢ .

(٢) لسان العرب مادة قضى (١٥ / ١٨٦)

لصورته ، واسترجاع لذكرياته المريرة على الشاعر .

وفي قوله : (والموت حمر أظافره) استعارة مكنية ، حيث شبه الموت بحيوان مفترس ، احمرت أظافره من دم قتلاه ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بصفة من صفاته ، وهي الأظافر على سبيل الاستعارة المكنية . والتعبير بما فيه من تصوير بديع يمنح الموت صورة مخيفة ، قائمة على تخيل الموت بحيوان مفترس ، انقض على فريسته ؛ ليشبع من دمها نهمه ، وفيه دلالة على مدى قسوة القتل ، وشدته على المرثى .

واختارالشاعر العطف بين هذه الجمل بالواو ؛ للدلالة على تزامن وقوعها، ومشاركتها في أوصافها المتعلقة بها ، وهذه الواو تسمى واو الحال ، وفائدتها تصوير الهيئة التي عليها صاحب الحال من جهة ، وتأكيد وقوع تلك الأحداث من جهة أخرى .

السياق الثالث :

حديثه عن نفسه ، وموقفه من هذه الواقعة التي شاهدها بعينيه ، ومدى يأسه من مناصرة أي شيء له .

١ــ أُدافــعُ عَنــهُ باليَـدَينِ ، وَلَـمْ يَـكُنْ لِيَثْنِـي الأعَـادِي أعـزَلُ اللّيـلِ حاسـرُهْ

٢ـ وَلَـوْ كَـانَ سَيفي ساعةَ القتل فـي يدي درَى القاتــلُ العَجــلانُ كيــفَ أُســاوِرُهْ

٣ــ حَـرَامٌ علـيّ الـرّاحُ، بَعْـدَكَ، أوْ أرَى دَمـاً بـدَمٍ يَجـرِي عَلـى الأرْضِ مـائرُهْ

٤ــ وَهَـلْ أرْتَجِـي أنْ يَطْلُـبَ الـدّمَ وَاتـرٌ يَـدَ الـدّهْرِ، والمَوْتُـورُ بالـدّمِ وَاتِـرُهْ

٥ــ أكـانَ وَلـيُّ العَهْـدِ أضْـمَرَ غَـدْرَةً؟ فَمِـنْ عَجَـبٍ أنْ وُلّـيَ العَـهدَ غـادرُهْ

٦ـ فـلا مُلّـيَ البَاقي تُرَاثَ الـذي مَضَـى، وَلاَ حَمَلَـــتْ ذاكَ الدّعَـــاءَ مـــنَابِرُهْ

٧ ـ وَلاَ وَألَ المَشْـكُوكُ فيــهِ،وَلا نَجَـا مـن السّـيفِ ناضِـي السّـيفِ غدراًوَشـاهرُهْ

٨ ـ لَـنِعمَ الـدّمُ المَسْـفُوحُ،لَيلَةَ جَعفـرٍ، هَـرَقتُمْ، وَجُـنحُ اللّيـلِ سُـودٌ دَيَاجِـرُهْ

٩ــ كـأنّكُمْ لـمْ تَعْلَمُـوا مَـنْ وَلِيّـهُ، وَنَـاعيهِ تَحْـتَ المُرْهَفَـاتِ وَثـائِرُهْ

هذه الأبيات يجمعها أيضا سياق واحد ، وهو حديث الشاعر عن نفسه ، وموقفه من هذه الواقعة التي شاهدها بعينيه [1] ، هذا هو السياق الجملي للأبيات، أماعن السياق الجزئي لكل بيت ، فيتخلف اختلافاً يسيراً من بيت لآخر، ففي البيت الأول أخبر الشاعر فيه عن نفسه ، وكيف أنه فعل كل ما في وسعه ؛ للحيلولة

(١) روت بعض الراجع أن هذه الحادثة شاهدها البحتري بنفسه (انظر:الدولة العباسية ص٢٦٩)

دون وقوع أي ضرر بالخليفة ؟! ، وفي البيت الثاني صور مدى عجزه عن فعل أي شيء للخليفة ؛ لأن القاتل تخير الوقت المناسب وهو وقت خلو السيف من يديه الذي كان يمكن أن يدافع به عن الخليفة ، وفي البيت الثالث عبر عن مدى إخلاصه للخليفة ؛ حتى إنه حرم على نفسه ما أحله الله ؛ حتى يرى بعينيه الأخذ بثأره ، وفي البيت الرابع صور مدى المأساة التي يعيشها ، وكيف أنه يطالب بالثأر من القاتل نفسه ؟! وفي البيت الخامس يريد أن يحمل المتلقين على الإقرارأن ولي العهد هو نفسه الذي حرض ، بل وشارك في قتل الخليفة ، وفي البيت السادس يتحدث عن بعض حكمه التي يبثها من آن لآخر في نفوس المتلقين، فهو يصور حال الدنيا ، وأنها لا أمان فيها لأحد ، وفي البيت السابع عطف على الحكمة السابقة حكمة أخرى ، وهي أن الموت لا ينفع الحذر منه ، ولا أمان فيه لأحد ، فالكل أمام حقيقته سواء ، وفي البيت الثامن يصور الليلة التي قتل فيها الخليفة ، ومدى ثقلها ، وامتدادها ، وشدتها على نفسه ، وفي البيت التاسع يتوجه باللوم إلى عشيرته ، وبطانته الذين تركوه فريسة سهلة في أيدي أعدائه ، فلم يفرقوا بين الخائنين ، والمخلصين له .

فبعد حديث الشاعر في السياق السابق عن المرثى ، أراد بهذه الأبيات أن يُقدّم دلائل على أنه ما قصر في نصرة الخليفة المتوكل ، وأنه فعل كل ما كان يستطيع فعله ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يُقدّم اعتذارًا على أنه لم يستطع أن يفعل شيئًا لمواجهة هؤلاء الأعداء .

وأول ما يطالعنا هنا من أوجه الاعتذار، والتسويغ التي أتى بها الشاعر ، قوله مخبرًا عن نفسه : (أدافع عنه باليدين) ، فالتعبير بصيغة المضارع يصور الواقعة ، وينقل المشهد من الماضي الغابر إلى الحاضر المشاهد ، وكأن الحادثة

تقع الآن على مرأى ، ومسمع من الجميع ، وهو يحاول أن يفعل كل ما في وسعه؛للحيلولة دون وقوع أي ضرر بالخليفة ، ولا شك أن صيغة المفاعلة (أدافع) بما فيها من دلالة على المشاركة هي الأولى ، والأنسب للسياق ، والمقام .

والتعبير بحرف المجاوزة (عن) هوالأنسب للسياق ، والمقام ؛ لما فيه من دلالة على مدى حرصه عن الدفاع عنه ، وأن يقف حائلاً بينه ، وبين أعدائه. والتعبير بضمير الغيبة الراجع إلى الخليفة في قوله:(عنه) دون إظهاراسمه ، هو الملائم لجو الحزن المسيطرعلى الموقف ، والمشهد ، وهو الملائم ـ أيضا ـ لغياب المرثى .

وهذا الوصف الدقيق بقوله :(باليدين) ، ومايفيده التعبيربحرف الإلصاق الباء يكشف المراد ، حتى تكتمل الصورة التي يريد أن يبثها في نفوس المتلقين ، ويقررها تقريرًا لا تتطلب بعده المزيد .

وهنا نلحظ أن الشاعر ساق هذه الأخبار، ولم يوقعها في حيز التأكيد ، وهذا فيه دلالة على اشتهار هذه الواقعة،وأنها صارت معلومة لدي أي متلق لها ؛ مما جعلها ليست في حاجة لتوكيدها .

ثم جاء العطف بالواو في قوله:(وَلَمْ يَكُنْ لِيَثْنِي الأعَادِي أعزَلُ اللّيلِ حاسرُهْ)؛ للدلالة على أن هذه المقولة داخلة تحت المقولة السابقة، وهذا دليل على امتلاء النفس بأسباب الاعتذار ، والتسويغ ، وأن عنده من الحجج ، والبراهين على أنه ما قصر في الدفاع عنه ؛ مما يحتاج إلى وقفات منه ، وتفصيل ، هذا من جهة ، وفيه دلالة على شدة انفعاله ، وتأثره بالحادثة من جهة أخرى .

وفي دخول النفي على الفعل المضارع في قوله:(ولم يكن ليثني) ؛ لإرادة نفي أي وجه من وجوه القدرة على الانتصار على الأعادي ، وإرجاعهم عما أرادوا

فعله ؛ إذ النفي بـ (لم) الداخلة على الفعل المضارع ينفي الفعل في الماضي ، مع بقاء دلالة المستقبل مراده ، فكأن هذا الأمر ، وهو عدم إثنائهم أمر متعلق بالماضي ، والحاضر ، والمستقبل . فـ (لم) الداخلة على الفعل المضارع صرفت معنى الفعل المضارع إلى الماضي ؛ لأنها جواب من قال : فعل ، إذ هي نظيرها ، فأنت قلت مجاوباً : فلم يفعل ما فعل ، فهي من القرائن الصارفة الأفعال المضارعة إلى معنى الماضي ، وإن كان لفظها يصلح للحال ، والاستقبال [1]

وهنا نلحظ أن الشاعر وجه النفي إلى العموم عن طريق إسناد النفي إلى الفعل رأسًا فقال : (ولم يكن ليثني الأعادي) ، ولم يقل : ولم يثني الأعادي ؛ للدلالة على أن النفي هنا موجه لكون الفعل من أصله ، والمعنى: انه لا سبيل لإثناء هؤلاء عما أرادوا فعله ، فالفعل منفي من أصل وجوده ، فمجرد التفكير في وجوده أمر غير ممكن .

واللام في قوله :(ليثني) لام الجحود ، فقد استخدم الشاعر هنا ما فوق النفي . وهو الجحود . ولام الجحود حينما تدخل على المضارع تفيد امتداد شدة النفي ؛ لتشمل المستقبل ، وهذا ملائم للسياق ؛ إذ فيه دلالة على أن أمر إثنائهم عما أرادوا أمر ماضي ، ومستمر في المستقبل لا يمكن الرجوع عنه .

ولقد كان الشاعر موفقًا في اختيار ألفاظه ، حينما عبر هنا بلفظ الإثناء ، دون غيره ، كالإرجاع مثلا ؛ إذ الإثناء فيه دلالة على أنه أمر ، ومطلب ممتد من " ثَنَى الشيءَ ثَنْياً : ردَّ بعضه على بعض،وقد تَثَنَّى ، وانْثَنَى ، وأَثْناؤُه ، ومَثانِيه : قُواه . . . وفي صفة سيدنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ليسَ بالطويل

(١) رصف المباني في شرح حروف المعاني ، للمالقي ،، ص ٢٨٠ ، ت / أحمد محمد الخراط ،الناشر : مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق (بدون تاريخ) .

المُتَثَنّي هو الذاهب طولاً ، وأَكثر ما يستعمل في طويل لا عَرْض له " [1] ، وهذا المعنى لا يفيده التعبير بالرجوع ؛ إذ " الرَّجْعة المرة من الرجوع " [2] ، كما أنه عبر بلفظ الأعادي دون الأعداء ؛ إذ الأعادي هو جمع الجمع ، ففيه دلالة على ضخامة حشود الأعداء ، وكثرتها ، وهذا هو الأنسب للسياق ، والمقام .

ولا خلاف هنا فيما يقوم به الفعل المضارع في قوله : (ولم يكن ليثني الأعادي) من دلالة على تجدد وقوع الحدث ، ومن استحضار للمشهد ، وكأنه واقع الآن .

وتجيء جملة (أعزل الليل حاسره) ؛ لتعبر عن وضع الشاعر في هذا المشهد ، والجملة كناية عن فقده لكل أسباب النصرة للخليفة ؛ إذ عبر بالملزوم وأراد اللازم .

والتعبير بصيغة (أفعل) ؛ للمبالغة في شدة اتصافه بالفعل " وصيغة أفعل تأتي للدلالة على دخول الفاعل فيما اشتق منه الفعل زمانًا ، أو مكانًا " [3]

وفي إضافة (أعزل) إلى (الليل) ؛ للدلالة على مدى الارتباط بين المتضايفين في الوصف . والتعبير بصيغة اسم الفاعل (حاسره) هي الأنسب للسياق ، والمقام ؛ لما في اسم الفاعل من دلالة على الثبوت ، والدوام . وقوله : (حاسره) من باب الترقي في الوصف ؛ لأنه أدل على المعنى المراد من سابقه . وهو لفظة (أعزل) ؛ إذ " الحَسْرُ : كَشْطُكَ الشيء عن الشيء ، حَسَرَ الشيءَ عن الشيء

(١) لسان العرب – مادة ثني (١٤ / ١١٥)

(٢) المرجع السابق – مادة رجع (٨ / ١١٤)

(٣) أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنبية ، د / نجاة عبد العظيم الكوفي ، ص ٤٠ ، ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

يَحْسُرُه ، ويَحْسِرُه حَسْراً ، وحُسُوراً ، فانْحَسَرَ : كَشَطَهُ " [١] ، أما العزل ، فهو من " عَزَلَ الشيءَ يَعْزِلُه عَزْلاً ، وعَزَّلَهُ ، فاعْتَزَلَ ، وانْعَزَلَ ، وتَعَزَّلَ : نَحَّاه جانِبًا ، فَتَنَحَّى " [٢] ، وهو يُعدُّ أيضا من باب الإيغال في الوصف يزيد المعنى به قوة ، ويجعله أكثر مبالغة .

وأل في (الليل) للعهد الذهني ، وفي هذا دلالة على أن هذه الليلة بذاتها هي معروفة لديهم ، وهم على علم بها ، حتى صارت بالنسبة لهم تاريخًا يُحكى فيما بينهم .

فقوله : (أعزل الليل حاسره) بمثابة الاستدلال على مدى ضعفه أمام مواجهة هؤلاء الأعداء ، والتعبير بطريق الكناية أبلغ في إثبات المعنى ؛ لأنه " انتقال من الملزوم إلى اللازم ، فيكون إثبات المعنى به كدعوى الشيء ببينة ، ولا شك أن دعوى الشيء ببينة أبلغ في إثباته من دعواه بلا بينة " [٣]

ولقد كان الشاعر موفقًا حين خلع على البيت الثاني أسلوب الشرط ، فقال:

وَلَوْ كَانَ سَيفي ساعةَ القتل في يدي درَى القاتلُ العَجلانُ كيفَ أُساوِرُهْ

فأدوات الشرط " تتميز بقوة ربطها بين جانبي المعني ، شرطه وجزائه ، وما يحيط بذلك من متعلقات "[٤] ، أضف إلى ذلك كونه وسيلة من وسائل الإثارة ،

(١) لسان العرب مادة حسر (٤ / ١٨٧)

(٢) المرجع السابق مادة عزل (١١ / ٤٤٠)

(٣) الإيضاح ٢ / ١٧٩.

(٤) من الخصائص البلاغية ، واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، د / فتحية فرج العقدة ص١٣١ ، ط : الأمانة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م .

والتشويق تدفع المتلقي إلى متابعة الشرط ، والتركيز عليه، والوقوف على متعلقاته لمعرفة الجزاء المترتب على الشرط ، فإذا ذكر الجزاء بعد هذه الإثارة ترسخ في النفس ، وتمكن في القلب.

وكان الشاعر أكثر توفيقًا ، حينما اختار(لو) الشرطية من بين أخواتها ؛ وذلك لما في لو الشرطية من معنى التخييل ، فهو بهذا قد ساق الكلام في ثوب الافتراض الذي كان يتمنى الشاعر وقوعه ، ويسبح فيه بخياله ، مع علمه باستحالة وقوعه ، وهذا يدل على مدى حسرته ، وألمه ؛ مما حدث .

والتعبير بياء المتكلم الراجعة إليه في قوله : (ولو كان سيفي ساعة القتل في يدي) تصوير لمدى تعلقه بهذا الأمر ، وارتباطه النفسي الشديد به ، فالياء هنا بمثابة الحاكي المصور لما يدور في خلجات نفسه .

وفي إضافة (ساعة) إلى (القتل) إضافة ترهيب ، وتخويف من أحداثها ؛ ولهذا آثر الشاعرالتعبير بلفظة الساعة دون غيرها ؛ لأن الساعة هي التي تأتي بغتة ، وعلى حين غرة ، قال تعالى : (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [1] ، وفي هذا دلالة على مدى فجيعة هذا الأمر، ومدى وقعه على نفسه ؛ لأنه جاء على حين غرة ، ومن حيث لا يُتوقع .

وفي قوله : (درى القاتل العجلان كيف أساوره) جاء جواب الشرط ماضيًا ، لأن الشاعر يريد أن يجعله في حيز الواقع المؤكد فعله ، وتحققه ؛ للمبالغة في قدرته على مواجهة هؤلاء الأعادي الغادرين لو كانت توافرت له أسباب النصرة ، بوقوع سيفه في يده .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٦٦ .

وهنا نلحظ أن الشاعرآثرالتعبير بلفظ (درى) دون غيره ، كعلم مثلا ، فالعلم معرفة بدقائق الأمور (إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا) (١) . . .أما الدراية علم يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه ، وذلك أن الفعالة للاشتمال ، مثل : العصابة،والعمامة ، والقلادة ؛ ولذلك جاء أكثر أسماء الصناعات على فعالة نحو : القصارة ، والخياطة ، ومثل ذلك : العباءة ؛ لاشتمالها على ما فيها، فالدراية تفيد ما لا يفيده العلم من هذه الوجه .(٢)

فالتعبير بالدراية فيه تصوير لمدى إشاعة هذا الأمر ، وسرعة إدراكه من أول وهلة ، وهي الأنسب للسياق ، والمقام .

ونلحظ هنا – أيضاً – خلعه وصف (العجلان) على قوله : (القاتل) ؛ للدلالة على سرعته في اختطاف القتل ، وأنه لم يكن بتريث ، وهذا فيه دلالة بطريق اللزوم على مدى خوفه ، وعدم قدرته على المواجهة الصريحة ، بل خطف القتل في سرعة وخلسة ، وفيه دلالة – أيضا – على تخيره الوقت المناسب للظفر بالمقتول .

ونلحظ مدى دقة نظم الشاعر ـ أيضاً . حين بنى كلامه على أسلوب الاستفهام في قوله : (كيف أساوره) ، ولا شك أن أسلوب الاستفهام هو الأنسب

---

(١) حديث مروي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَمَرَهُمْ أَمَرَهُمْ مِنْ الْأَعْمَالِ بِمَا يُطِيقُونَ ، قَالُوا إِ: نَّا لَسْنَا كَهَيْئَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَغْضَبُ ، حَتَّى يُعْرَفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ ، إِنَّ أَتْقَاكُمْ ، وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا (صحيح البخاري ، كتاب : الإيمان ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : أنا أعلمك بالله (١ / ١٣)

(٢) الفروق اللغوية – (١ / ٢٣١)

لمقام الإثارة والتشويق،ولفت الانتباه هنا ؛ حتى يجعل عقل السامع يسبح بخياله ؛ ليتخيل كيف كانت الأمور ستصير على غير حالها لو كانت تهيأت له أسباب النصرة ، والغلبة .

وهنا نلحظ دقة الشاعر في انتخاب ألفاظه المعبرة عن مراده باختياره للفعل (أساوره) دون أقاتله ؛ إذ التعبير بالمساورة ، فيه دلالة على شدة مقاتلته ، وقوة سطوته عليه،من قولهم : " سارَ يَسُورُ سَوْراً ، وسُؤُوراً : وَثَبَ ، وثارَ ... ويقال : إن لغضبه لسَوْرَةً ، وهو سَوَّارٌ ، أَي : وثَّابٌ مُعَرْبِدٌ " (١)

ونلحظ هنا أن هذا البيت جاء معطوفاً على سابقه ؛ لأنه داخل في نطاقه ، وهو بمثابة التأكيد على المعنى الموجود في البيت الأول ، وهو يُعدُّ ـ أيضا ـ بمثابة التنويع في نقل الصورة ، والمشهد من جهة ، وبمثابة التنويع في تعداد أعذاره من جهة أخرى ، والعطف هنا بين هذه الجمل ؛ لما بينها من التوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقها في الخبرية لفظاً ، ومعنى .

ويجيء قول الشاعر :

حَــرَامٌ علــيّ الــرّاحُ، بَعْــدَكَ، أوْ أرَى دَمــاً بــدَمٍ يَجــرِي عَلــى الأرْضِ مــائرُهْ

ليدل على مدى الفجيعة التي أصابت قلب الشاعر بفقده للخليفة ؛ مما جعله يحرم على نفسه ما أحلّه الله له ، حتى يرى الأخذ بثأر الخليفة المتوكل أمام عينيه .

ونلحظ هنا أن الشاعر لم يتحدث عن صفات الممدوح ؛ إذ التقليل من صفاته يتلاقى مع ما فيه من شدة حزنه عليه ؛ ولذا اكتفى بالتعبيرعنه بالضمير

(١) لسان العرب مادة سور – (٤ / ٣٨٤) .

الراجع إليه في قوله : (بعدك) .

ونلحظ أنه قال : (عليَّ) واستعمل الحرف (على) بما فيه من معنى الاستعلاء ، وفي هذا دلالة على مدى إلزامه لنفسه بهذا الأمر ، مهما كلفه ذلك من مشقة .

وقوله : (بعدك) دون (دونك) هو الأنسب لمقام المتوفي ، ومكانته عند الشاعر إذ التعبير بلفظ الدون فيه دلالة على التسفل ، والانحطاط ، بخلاف بعدك قال تعالى : ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١)

ونلحظ أن الشاعر اختار للتعبير عن ذلك الجملة الاسمية ، فقال :(حرام علي الراح بعدك) ؛ إذ هي الأنسب للسياق والمقام ؛ لأن الجملة الاسمية بما فيها من دلالة على الثبوت ، والدوام ، فيها دلالة على أن هذا الأمر لا ينفك عنه أبدًا ، وهذا فيه دلالة واضحة على مدى نبل أخلاقه ، وإخلاصه للمتوكل ، وأنه مشروط بقوله : (أوْ أرَى دَماً بدَمٍ يَجرِي عَلى الأرْضِ مائرُهْ) فـ (أو) هنا تحمل معنى الشرط ، فهي بمثابة القيد الذي جعله الشاعر على نفسه ؛ حتى ينعم بما أحله الله له .

والفعل (أرى) هنا يصور مدى حرص الشاعرعلى الأخذ بثأرالخليفة ، وإحداث التغيير ، فهي رؤية حقيقية بالعين تُظهر مدى صدقه ، وحرصه على تحقق آماله ، ولقد جسد هذا الحرص ، وتلك الآمال ، والأحلام حرف العطف (أو) الذي ينقلنا إلى فعل مختلف يتمناه الشاعر ، ويترجاه .

ولا يخفى ما يحققه الجناس في قوله : (دما بدم) من التجانس الصوتي ،

(١) سورة البقرة من الآية ٢٣ .

والتناغم الحرفي الذي يضفي نوعاً من تنشيط الأذهان ، وإيقاظ المشاعر ، والأحاسيس لما يريده الشاعر ، وأنه لا يرضى بأقل من أن يرى الثأر أمام عينيه والظفر عليهم يواقعه بناظريه .

وفي استعمال الباء إشارة إلى مدى ارتباط الأمرين في نفس الشاعر ارتباطًا وثيقًا وهذا يفهم من إفادة الباء لمعنى الإلصاق .

وهنا نلحظ إيثار الشاعر للفعل (يجري) دون يسيل مثلاً ؛ إذ فيه دلالة على أنه لا يشفي غليله إلا كثرة القتلى ، وظهور هذا الأمر للجميع ، فـ"الجري : إسراع حركة الشيء . . والماء الجاري : المتدافع في انحدار ، واستواء ، وجريت : أسرعت" (١)

وفي استعماله لحرف الاستعلاء (على) في قوله : (على الأرض) هو الأنسب للسياق ، والمقام ؛ لما فيه من دلالة على التمكن ، والظفر ، والتشفي .

وبعد أن منى الشاعر نفسه بعض الشيء بالأخذ بثأر الخليفة ، إلا أنه عاد ليواجه نفسه بالحقيقة المرة ، وأن هذا الأمر يُعدُّ من قبيل المستحيلات ؛ لأن المطالب بالثأرهو القاتل نفسه ، ومن ثَمَّ لجأ الشاعر إلى بعض الأساليب الإنشائية التي تجسد مدى يأسه ، فقال :

وَهَلْ أرْتَجِي أنْ يَطْلُبَ الدّمَ وَاتِرٌ يَدَ الدّهْرِ، والمَوْتُورُ بالدّمِ وَاتِرُهْ

وفي مجيء الأسلوب الإنشائي متعاوناً مع الأسلوب الخبري في سرد

(١) التوقيف على مهمات التعاريف ،المؤلف : محمد عبد الرؤوف المناوي(١ / ٢٣٩) ، ت : د/محمد رضوان الداية ،الناشر : دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق ، ط١ : ١٤١٠ هـ .

الأحداث في تناسق بديع ، وتتابع جيد ، يثير النفس ، ويحثها على المتابعة ، وهذا كله يُعدُّ من وسائل الإثارة ، والتشويق .

وفي تكرار الواو هنا بشكل مكثف ، وكأنه يعرض لنا حاله ، وما وصلت إليه نفسيته بشكل متصل ، وتتابع مكثف ، بحيث يعكس لنا من خلال هذه الجمل المتتابعة صورة من الواقع المرير الذي يواجهه ، والموقف الحزين الذي يقفه .

فهو بهذه الواوات يعكس المراحل النفسية التي يعاني منها، وأول هذه المراحل أنه كيف يطلب الدم من القاتل نفسه .

وهنا نلحظ تكرارالشاعر لكلمة (واتر) ، ومشتقاتها (واتر،موتور،واتره) وكله يعكس مدى إلحاح الشاعرعلى التأكيد على فكرته التي يريد أن يبثها في نفوس المتلقين ؛ ليعكس عندنا مدى غرابة الموقف الذي هو فيه .

والاستفهام في قوله :(وهل أرتجي) خرج من معناه الحقيقي إلى معنى فرعي ، وهو النفي ؛ لنفي إرادة الفعل ، فهو ينفي أن يرتجي الثأرللمقتول من قاتله .

واختار الشاعر(هل) من بين أدوات الاستفهام؛ لأنه يُطلب بها تعيين الجواب ، ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع من تصوير للموقف ، واستحضار له بما يحمله من غرابة .

وضمير المتكلم في قوله :(أرتجي) بمثابة القوة المصورة لمكنونات نفسية الشاعر والمؤثرة فيه ، ومدى المأساة التي يعيشها ، وهو يواجه هذا الأمر على غرابته ، وحجم المسئولية الملقاة على عاتقه .

ونلحظ أن الشاعر عبر بلفظ (الطلب) دون الأخذ ، ومعناه : أن أقل القليل لا ينتظره ، ولا يترجاه ممن حاله كذلك .

والتعبير بلفظ (واتر) هو الأنسب للسياق ، والمقام ؛ لما فيه من دلالة على شدة القتل ، وشدة التأثيرالنفسي الواقع من جراء هذا القتل ، " يقال : وَتَرْتُ فلاناً : إذا أَصبته بِوَتْرٍ . . . ووَتَرْتُ الرجلَ : أفزعتُه ، ووَترَهُ حَقَّه ، ومالـه : نَقَصَه إياه " (١)

والتعبير باسم الفاعل (واتر) بما فيه من دلالة على الثبات ، والدوام ، فيه دلالة على شدة إلصاق الجرم ، وتعقله به . ومن ثَمَّ فالتعبير بلفظة (واتر) أعطى عمقاً دلاليًا ، ومعنويًا ، بما أفاده من دلالة على عظم الجرم ، وشدة تأثيره.

وفي قوله : (يد) استعارة أصلية ، حيث أطلق لفظ اليد ، وأراد به العطاء على سبيل الاستعارة الأصلية في الاسم ، وفي هذا دلالة على مدى شدة عطاء المتوفى ، ومدى تأثيره فيمن حوله ، كما أن في إضافة لفظ (يد) إلى (الدهر) استعارة مكنية ، حيث شبه الدهر بالإنسان ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهي اليد على سبيل الاستعارة المكنية .

ومن جمال الاستعارتين أنه أفرغهما في معين واحد ، بجعل أحدهما مضافًا إلى الآخر ، ومنسوباً إليه ، وجعل الثانية متفرعة على الأولى ، ومركبة منها ، وحصل بذلك تصوير مدى تأثير المقتول فيمن حوله ، وما يمثله بينهم ، فصوره ، وكأن الدهر كله كان مصدرًا للعطاء بوجود هذا الخليفة .

ولا يخفى أن قوله (واتر) هنا عمل الفعل في (يد الدهر) فنصبه على أنه مفعول به ؛ وبهذا تحول الدهر من العطاء ، والسخاء ، إلى البخل ، والمنع ، وتحول من حالة الأمان ، والسكون إلى حالة الخوف ، وعدم الطمأنينة .

(١) لسان العرب مادة وتر (٥ / ٢٧٣)

ونلحظ أن الشاعرعبر بلفظ (الدهر) دون غيره كالوقت ، والزمن مثلاً ؛ لما فيه من دلالة على استطالة عطاء الخليفة ، بخلاف الوقت ، والزمن .

ومن ثمَّ ففي التعبير بقوله : (واتر) مع ما فيه من دلالة على شدة القطع، مع قوله : (يد الدهر) مع ما فيه من دلالة على المبالغة في شدة عطاء المتوفى ، دلالة على مدى عظم جرم القاتل ، وشناعته من جهة ، وعلى سرعة تغير الأحوال ، وصيرورتها على غير ما كانت عليه من جهة أخرى .

وفي التعبير باسم المفعول (الموتور) فيه تمكين للوصف ، وإثباته للموصوف.وأل في (الدم) للعهد الذهني ، والمقصود بالدم المعروف للمخاطبين ، وهو دم الخليفة المتوكل .

وهنا نلحظ أن الشاعر حرص على تكرار ألفاظ بعينها ، وهي لفظة الدم،أو بمشتقاتها ، كلفظة (واتر، موتور، واتره) ؛ إذ إن تكرار هذه الألفاظ له وظيفته الصوتية ، بما يبعثه من تأثير على السامع ، ووظيفته الدلالية ، بما يحمله من توكيد للمعنى المراد ، والمبالغة فيه .

وهنا نلحظ أن الشاعر في حديثه عن الواقعة ، ومدى وقعها على نفسه لم يعن بذكر أسماء بعينها ، وإنما عنى بذكر ما يمثله هذا المقتول في قومه ، وهذا ما صرَّح به في قوله : (يد الدهر) ، وهذا يدل على أن الشاعر يبحث عن قيم ، ومبادىء فُقدت بفقده للخليفة ، فالذي يعنيه في المقام الأول تلك القيم ، والمبادىء ، بقدر ما يعنيه الشخص ذاته.

ثم يواصل الشاعر إثارة التنبيه،والتشويق عن طريق أسلوب الاستفهام ، فيقول :

أكـــان ولـــي العهـــد أضـــمر غـــدرة ؟ فمـن عجـب أن ولـي العهـد غـادره؟!

واستعمال الشاعر للاستفهام أكثر من مرة ؛ لأنه يريد أن يُمهد لما يريد أن يرسخه في نفوس السامعين ، ويمكنه في قلوبهم ، فالاستفهام يكون مقصودًا به" محض التنبيه أعني الإيقاظ ، وإثارة الفكر ، والحس ؛ وليلتفت بهذا الحضور الواعي إلى السياق ، فيستوعبه بخفاياه ، ودقائق همسه ، وكل حواشيه ، فيلتقط المراد " (١)

والاستفهام هنا للتقرير؛ لأنه يريد من المخاطبين أن يقروا بصدور الفعل بأن ولي العهد قد أضمر في نفسه الغدر بالخليفة ، وهذا الاستفهام يُعدُّ بمثابة الدليل ؛ لأن هذا الدليل لوضوحه لا يسع المقر إلا الإقرار به .

ونلحظ هنا أن الشاعر أراد أن ينقل لنا أحداثًا ماضية إلى المعنى الحادث ، فيصورها باستخدامات مختلفة .

فالفعل (كان) هنا يبرز لنا واقعًا مُعاشًا لا محيد عنه ، فيظهر لنا من خلاله ما يحز في نفس الشاعر. وقوله : (أضمر غدرة) تُعدُّ بمثابة الكشف عن مكنون نفس ولي العهد ؛ ولذا جاء التعبير بطريقة واضحة ، وبصريح اللفظ ، دون تلوين ، أو مواراة.

ونلحظ أن الشاعر استخدم أفعالاً ماضية (كان ، وأضمر) ؛ لأن المقام هو مقام إرادة تأكيد وقوع هذه الأفعال ؛ لذا فهي الأنسب للسياق ، والمقام .

(١) دلالات التراكيب ، أ.د/ محمد محمد أبو موسي ، ص٢٤٤ ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط ٢ : ١٤٠٩هـ / ١٩٨٧م

وإيثار الفعل (أضمر) دون غيره ، كأخفى مثلا ؛ للدلالة على شدة ما يخفيه من غدر ، وخيانة ؛ إذ الإضمار فيه دلالة على شدة الخفاء ، قال ابن منظور : " والضَّمْرُ من الرجال : الضامرُ البَطْنِ ... وقَضِيب ضامرٌ ، ومُنْضَمِرٌ ، وقد انْضَمَرَ : إذا ذهب ماؤُه . . . والمِضْمارُ : الموضع الذي تُضَمَّرُ فيه الخيلُ"(١)

وفي تنكير لفظة (غدرة) دلالة على حقارة ما أَضمره ولي العهد ، والتهوين من شأنه ، وفي تنوينها دلالة على شدة خطره ، فالغَدْرُ : ضِدُّ الوَفاءِ (٢)

والتعبير بالمصدر في قوله :(عجبٍ) ؛ فيه دلالة على مدى المبالغة في إظهار قوة العجب ، وكماله في نفسه ، وكأن هذا الأمر هو العجب كله ؛لأن المصدر فيه دلالة على كمال الصفة في الموصوف ، "و العجب بفتحتين ، والتعجب : حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء " (٣) ، والمعنى : إن تقر بأن ولي العهد أضمر في نفسه الغدر بالخليفة ، فمن عظيم العجب الذي لا تتناهي درجاته في العظم أن يكون هو غادره ، والمشارك في قتله بنفسه .

والتنوين هنا في قوله :(عجب) يفيد معنى التعظيم ، وهذا يتواءم مع ما أفاده الاستفهام من إثارة ، وتشويق .

وفي وقوع المصدر العجب في سياق الاستفهام ، ومجيئه معطوفًا عليه ؛ إفادة لمعنى التشويق لمعرفة الشيء المتعجب منه ؛ تهويلاً لأمره ، وتفظيعًا من شأنه ، ومن ثَمَّ فالتنكير، مع التنوين في (عجب) يفيدا التعظيم ، والتهويل ؛ تبعًا

(١) لسان العرب –مادة غدر (٤ / ٤٩١)
(٢) القاموس المحيط –مادةغدر (١ / ٥٧٦)
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ، ١/ ٥٠٤ .

لما أفاده الاستفهام من الإثارة ، والتشويق .

وهنا نلحظ ما تحققه(من) التبعيضية من دلالة على أن هذا الأمر يُعدُّ من النوادر القليلة الحدوث ، وهذا يتلاءم مع جو الإثارة ، والتشويق المسيطر على السياق ، والمقام .

وفي قوله: (غادره) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ حيث عبر بالسبب ، وهو الغدر وأراد القتل على سبيل المبالغة في إثبات أن الغدر هو السبب الرئيس في حدوث القتل . والتعبير باسم الفاعل ؛ لقصد إثبات مدى تعلق الجرم به ، وأنه السبب الرئيس في تمكن الغادرون منه . والتعبير بضمير الغيبة الهاء الراجع على الخليفة يتناسب مع غرابة الموقف ، وشناعته .

ونلحظ أن الشاعر في تقريره هنا كرر بعض الكلمات ، نحو (ولي العهد) (غدرة ، غادره) ، فقد كررهما مرتين للتنبيه ، والتأكيد ، فتكراره هذا يغنيه عن أن يبدأ كلامه بالقسم ، ونحوه من أنواع المؤكدات ، كأن يقول مثلاً : إن كان ، أو إذا كان ، فهو بهذا يخرج كلامه كأنه من المعرفة بمكان ؛ مما يجعل ليس هناك حاجة لتأكيده بأي نوع من المؤكدات .

وقوله : (أكان ولي العهد أضمر غدرة) تُعدُّ تمهيدًا لقوله : (فمن عجب أن ولي العهد غادره) ، والمعنى : إن هذه العجب إنما هو مترتب ، ونتيجة على ما نقر به بأن ولي العهد أضمر للخليفة الغدر ، فليس هناك سبيل لإنكاره ، أو المحيد عنه ؛ لأن من هذا شأنه ، فحاله حرية بالتعجب . ففي العطف بالفاء التي تحمل معنى السببية ، والترتيب في قوله : (فمن عجب) دلالة على ظهور هذا العجب ، وأنه من البديهة بمكان .

وإلى جانب الإثارة والتشويق عن طريق تصدير الكلام بالاستفهام، جاءت الإثارة والتشويق عن طريق عطف أساليب النفي عليها واحدة تلو الأخرى ، فقال:

فـلا مُلّـيَ البَـاقي تُـرَاثَ الـذي مَضَـى، وَلاَ حَمَلَـــتْ ذاك الدّعَـــاءَ منَابِـــرُهْ

وَلاَ وَأَلَ المَشْـــكُوكُ فيـــهِ ، وَلا نَجَـــا مـن السّـيفِ نـاضِـي السّـيفِ غدراًوَشـاهرُهْ

وفي تكرار أسلوب النفي هنا ، واتخاذه كبداية انطلاقه لكل حكمة من حكمه في صورة مستقلة يكشف عن هم الشاعر الذي لم يجد سوى الأبيات ، والكلمات الشعرية لكي يبوح فيها بإحساسه ، وهمومه ، وآلامه ؛ لعلها تُسكّن وجدانه ؛ لذلك جسد كل هذا في تتابع الصفات التي وقعت بعد أسلوب النفي .

و الإمْلاء في قوله : (فلا ملىء الباقي تراث الذي مضى ، ولا حملت ذاك الدعاء منابره) معناه :"الإمْهالُ ، والتأْخير ، وإطالةُ العُمُر " [1] ، والمعنى : أن هذا هو حال الدنيا ، فلا أطال الباقي عمر الذي مضى ، ولا دعت إلى هذا الأمر أي قوة أخرى .

وفي تصدير أساليب النفي بالفاء من بين حروف العطف في قوله : (فلا ملىء الباقي تراث الذي مضى) يعكس لنا الحالة النفسية التي عاني منها الشاعر ومدى يأسه ؛ وذلك لما يفيده هذا الحرف من الترتيب ، والتعقيب ، وكما يقول د / أبو موسى :" فإذا كان الكلام الجيد هو الذي يصطبغ بأحوال النفس ، ويعكس صفاءها ، وكدرها ، ويجسد حركتها ، فلا غرو أن تنعكس على هذه الحروف ظلال الانقباض ، والانبساط في النفي ، وأن ينقل لنا حرف التعقيب إحساس المتكلم

(١) لسان العرب – مادة ملى (١٥ / ٢٩٠)

بالزمن قبضًا ، وانبساطًا " [1]

ونلحظ هنا أن الشاعر قابل بين قوله :(الباقي) ، وقوله : (الذي مضى) بتعريفه للأول بـ (أل) ، وللثاني باسم الموصول (الذي)، و(أل) إما أن تكون عهدية ، وإما أن تكون جنسية ، و(الذي) تأتي لما تأتي له اللام ، فتأتي بمعنى الجنسية ، وتأتي بمعنى العهدية أيضاً.

ويمكن القول أن السر في التعبير باسم الموصول في قوله : (الذي مضى) دون استعمال (أل) كسابقه إشارة إلى أن الذي مضى مما اشتهر ، وصار معروفًا بين الناس ، هذا باعتبار أن اسم الموصول يدل على تفخيم ، وتعظيم مضمون الصلة .

كما أنه عبر عن (الباقي) بالاسم ، وعبر عن الماضي بالفعل ، فقال : (الذي مضى) ، دون أن يقول : الماضي ، فلم يقل : فلا حمل الباقي تراث الماضي ؛ لأن الاسم يدل على الثبوت بدون انقطاع ، وهو المناسب للمقصود ، أما الفعل ، فيدل على الحدوث ، والتقييد في زمن ما ، سواء أكان هذا الزمن ماضيًا ، أو حاضرًا، أو مستقبلًا ، ولا شك أن الشاعر يقصد هنا الزمن الماضي الثابت المستقر ، وهو يتلاءم مع السياق ، والمقام ؛ لأن الشاعر يريد أن يثبت أن ما خلفه الماضون من موروثات سواء حسية ، كنا ننعم بها في الحياة ، أو موروثات وجدانية ، من قيم ، وعادات ، ومبادئ يصعب على الباقين تكرارها ، والحفاظ عليها ؛ ومن هنا استعمل كلمة (تراث) ، فقال : (تراث الذي مضى)

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء ، وثم) للدكتور محمد الأمين الخضري ، ص ٥١، الناشر : مكتبة وهبة ، ط١ : ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

ويجيء قوله:(ولا حملت ذاك الدعاء منابره) ؛ ليجسد الحالة النفسية التي وصل إليها من استعطاف ، واسترحام ؛ حتى إنه كان يتمنى أن تكون هناك قوة ما من الممكن أن تجعل المستحيل ممكنًا ، فالشاعر كان يتخيل أنه لو كان من الممكن أن تأتي قوة ما خيالية يدعوها بأن تجعل الباقي يطيل في عمر الماضي ، وتعاند الدهر . ولا شك أن هذا كله يكشف عن مدى يأس الشاعر ، وإحساسه بأن كل شيء أصبح يضاده ، ويقف حياله ، ولا سبيل لنصرته .

وفي استعمال الشاعر لاسم الإشارة الموضوع للبعيد في قوله :(ذاك الدعاء) ؛ للدلالة على أن هذا الأمر يُعدُّ من المستحيلات البعيدة الوقوع .

وفي استعماله للفظة (حملت) ، وما توحيه من دلالة على ثقل المحمول ، مما يتناسب مع السياق ، والمقام ؛ إذ الحمل لا يكون إلا فيما فيه ثقل ، قال تعالى ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ (١) .

ثم عطف على الحكمة السابقة حكمة أخرى ، فقال :

وَلاَ وَأَلَ المَشْكُوكُ فيهِ، وَلا نَجَا من السّيفِ ناضِي السّيفِ غدراًوَشاهرُهْ

وقوله :(وأل)، أَي: لجأَ (٢)، ونَضا السيفَ نَضْواً ، وانْتَضاه : سَلَّه من غِمْدِه (٣)، والمعنى : ولا طلب النجاة من الموت المشكوك في أمره ، ولا نجا منه مخرج السلاح من غمده غدرًا ، وعلى حين غرة ، أو شاهره عنوة أمام الناس .

ولعلّ في هذا الإسناد ، والتّعبير بصيغة الزّمن الماضي، دليلاً على أن هذه

(١) سورة العنكبوت : من الآية ١٣]

(٢) لسان العرب – مادة وأل (١١ / ٧١٥).

(٣) لسان العرب– مادة نضا (١٥ / ٣٢٩)

معتقدات دينية ثابته في نفس الشاعر لا محيد عنها ، فالذي يملك الضر ، والنفع هو الله وحده . عز وجل . قال تعالى :﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلكُ لكم مِنَ الله شيئاً إنْ أَرَادَ بِكُمْ ضرّا أَو أَرَادَ بِكُم نَفْعاً، بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

وانظر إلى براعة الشاعر ، ودقة مسلكه البياني في استعماله للمتضادات من أجل أن يقرر الفكرة في ذهن المتلقين من خلال ما يحمله الأسلوب من تضاد ، وما يستوجبه من إمعان النظر ، والموازنة الدقيقة بين الأمور ، وهذا كله أدل على المقصود ، وأبين في تأكيد المعنى ، وإيصال الفكرة ، وخصوصًا أنه يخاطب نفوسًا تعلقت بالسلطة والجاه ، واتخذت كل الطرق ، والسبل للوصول إليه ، حتى ولو كان بالغدر بأقرب الناس صلة ومودة . وهم الآباء . وهذا بلا شك ، مما يدل على ذكاء الشاعر ، وفكره الثاقب ، وإدراكه لما يدور في خلجات هؤلاء ، ويداعب نفوسهم . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فعند قراءة هذا المقطع من القصيدة (فلا ملىء الباقي تراث الذي مضى. ولا حملت ذاك الدعاء منابره ، ولا وأل المشكوك فيه ولا نجا من السيف ناضي السيف غدرا وشاهره) تحس بأن الحروف ، والكلمات تخرج مصحوبة بنبرة حزن ، وتثاقل في النطق ، وأنين متصل ، فكل هذا يعكس مدى انكسارنفس الشاعر ، وحزنها العميق أمام هذا الحقائق المقررة ، والنهايات المؤكدة وحتمية الموت . فهذا التدفق في الكلمات ما هو إلا صدى لنفسية الشاعر، وكأنه يتنفس من خلال هذه الكلمات بما تحمله من متناقضات صنعها الطباق ؛ ليصور ما يجده ، ويحاصر نفسه .

ويبقى حرف الهاء في قوله :(منابره ، وشاهره) في نهاية كل مقطع يحمل الآهات التي تدل على الحزن العميق الذي يدب في نفس الشاعرعند نهاية كل

(١) سورة الفتح الآية ١١ .

مقطع .

ثم لم يجد الشاعر سبيلا غير أن يتوجه بمدح المقتول ، بقوله :

لَـنِعمَ الـدّمُ المَسْـفُوحُ، لَيلَـةَ جَعفـرٍ، هَـرَقتُمْ، وَجُـنحُ اللّيـلِ سُـودٌ دَيَـاجِرُهْ

واستعمل لذلك اللام الموطئة للقسم ؛ لأنها وطأت للجواب. وتسمى أيضاً: المؤذنة. وقولهم: إنها موطئة للقسم، فيه تجوز، وإنما هي موطئة لجواب القسم.(١)، وتُعدُّ أحد أساليب التوكيد ، كما أنه مدحه بأم الصيغ ، وهي (نعمَ) كما وصفها الدكتور محمد أبو موسى (٢)

وهنا نلحظ مدى دقة الشاعر في اختياره لألفاظه ، حين عبرعن الدم بـ(المسفوح) ، دون غيره ، كالصَّبّ ؛ إذ " الصب يكون دفعة واحدة ؛ ولهذا يقال : صبه في القالب ، ولا يقال : سكبه فيه ؛ لأن ما يصب في القالب يصب دفعة واحدة ، والسفوح : إندفاع الشيء السائل ، وسرعة جريانه ، ولهذا قيل : دم مسفوح ؛ لأن الدم يخرج من العرق خروجًا سريعًا" (٣)

والتعبير باسم المفعول (المسفوح) فيه تركيز على الحدث نفسه ؛ لأنه هو المنوط به الكلام ؛ لأن الفاعل من المعرفة بمكان . والتعريف بأل في (الدم ، والمسفوح) يفيد كمال اتصاف الموصوف بالصفة .

---

(١) الجني الداني في حروف المعاني ، للعلامة المرادي المصري ، ١ / ٢٢ ، ت / فخر الدين قباءه والأستاذ / محمد مدين فاضل ، طبعة / دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ : ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري (دراسة في سمت الكلام الأول) ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٣) الفروق اللغوية – (١ / ٢٧٩)

والإضافة في قوله:(الدم المسفوح) تحرك العاطفة ، وتثير الشعور، وتبرز ما عليه الشاعر من شدة الحزن ، ومن ثَمّ يستشعر السامع ، ويتصور ما حدث للخليفة ؛ حتى استحق هذا الوصف ، وتلك الإضافة ، كما أن الإضافة أغنت عن تفصيل يتعذر؛ لأن الشاعر ضائق النفس ، مهموم القلب .

وعلى الجملة ، فقد جاءت الإضافة متناسقة مع السياق، متناسبة مع المقام ، معبرة عن مشاعر الشاعر ، فهي " توقظ شعورًا، وتحرك عاطفة ، لا تستطيع معها أداة من الأدوات أن تُستخدم للتعريف مكانها"[١].

والتعبير بالظرف الزماني (ليلة جعفر) . وهي الليلة التي قتل فيها الخليفة المتوكل . فيه تعيين للوقت الذي حدث فيه القتل ، هذا بالإضافة إلى ما فيه من استحضار للحظة القتل من الماضي الغابر إلى الحاضر المشاهد .

ولعل في التنصيص على لفظ (جعفر) . والمقصود به قصر الخليفة الذي كان عنوانًا على حضارة المكان ، وزهوه . كما سبق وبيّن البحث . إشعارًا بأن هذه الليلة كانت علامة ، وعنوانًا على سقوط هيبة المكان ، وتراجع الخلافة فيه ، بمقتل الخليفة المتوكل ، ومن " المعروف أن قصر الحكم ، هو رمز . في حالتي قوته وضعفه . للخلافة والخلفاء ، وقد استخدمه البحتري تنويعًا على الحدث الرئيسي وفقًا لهذا التصور " [٢] ، وهذا مما يدل على مدى ذكاء الشاعر ، وقدرته الفنية على توظيف الألفاظ وفقًا لما يخدم السياق ، ويتوافق مع المقام ، " فإن للشاعر الفنان

(١) بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، تأليف / د/منير سلطان ، ص٥٩. ، طبعة / منشاة المعارف بالإسكندرية.

٢) البحتري بين نقاد عصره ، ص ٣٥٢ .

رؤى حدسية ، تستخلص جوهر الأحداث ، وتربط النتائج بالأسباب"[١]

وإنما حرص الشاعر على تقديم الظرف الزماني (ليلة جعفر)على الفعل (هرقتم)[٢] فأصل الكلام أن يقول: هرقتم ليلة جعفر ؛ لكي يتمكن الغرض المسوق له الكلام فضل تمكن ، ويستقر في النفس بعد التمهيد له ، والإعداد الذهني ، والقلبي عن طريق الصياغة اللغوية المذكورة ؛ وذلك لاشتمال تلك الليلة علي أمر عجيب ، ومشهد غريب ، وهو جريان الدم بهذه الصورة ، وبتلك الهيئة .

وتجيء جملة (وَجُنحُ اللّيلِ سُودٌ دَيَاجِرُهْ) ، وهي جملة حالية ، جاءت معطوفة على سابقتها؛لتصور حال هذه الليلة ، ومدى وقعها على نفس الشاعر ، وعلى المجتمع من حوله .

و (جُنْحُ) الليل بضمّ الجيم ، وكسرها : ظلامه ، واختلاطه [٣] ، والدياجر: جمع ديجور ، وليلة دَيْجُورٌ ، ودَيُجُوجٌ : مظلمة [٤] ، والتعريف في الليل للعهد الذهني ، وهو يشير إلى أنها ليلة معروفة ، ومخصوصة بالذكر، وهي الليلة التي قتل فيها المتوكل ، والتعبير كناية عن طول هذه الليلة ، وامتدادها ، وشدتها ، وثقلها على أنفسهم .

ويجيء قوله :

---

١) المرجع السابق الصحيفة نفسها .

٢) وهَرَقْت مثل أَرَقْتُ أبدل الهمزة هاء (انظر : لسان العرب – مادة هرق (١٠ / ٣٦٥)

(٣) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، للفيومي (١ / ١١١) ، الناشر : المكتبة العلمية – بيروت .

(٤) لسان العرب – مادة دجر (٤ / ٢٧٧).

كـــأنّكُمْ لـــمْ تَعْلَمُـــوا مَـــنْ وَلِيُّـــهُ، وَنَاعيـــهِ تَحْـــتَ المُرْهَفَـــاتِ وَثَـــائِرُهْ

معاتبًا فيه عشيرته الذين تركوه فريسة سهلة في أيدي أعدائه، ومشبهًا فيه حالهم وكأنهم لم يعلموا شيئًا عن المحيطين به .

وجاء التعبير بصيغة الجمع مسندًا إليهم في قوله :(كأنكم لم تعلموا) ؛ ليشملهم اللوم جميعاً ، ويعمهم ، وكأنه موجه إلى كل فرد فيهم دون استثناء ، وكأنهم اشتركوا جميعًا في قتله .

وهنا نلحظ براعة الشاعر حينما صنف المحيطين بالخليفة إلى ثلاثة نفر وهذا يُعدُّ من حسن التقسيم ، كما أنه صرّح بذلك من خلال أسلوب الاستفهام ، وما يحمله من إثارة للانتباه ، ولفت للأنظار ، وهو يدل بطريق اللزوم على مدى غرابة المحيطين بالخليفة ؛ لأنهم لم يفرقوا بين الصديق الحقيقي للخليفة ، وبين العدو اللدود له ، ومن هنا اختار لكل واحد من الصفات المعبرة عن أصحابها اسم الفاعل ، فقال:(وليه)[1] ، وهو كناية عن الفتح بن خاقان ، وقوله : (وناعيه تحت المرهفات) [2] ، وهو كناية عن ابنه المنتصر، وبغا التركي ، وقوله : (وثائرة) [3] وهو كناية عن ابنه المعتز .

ونلحظ أنه عبر بلفظ العلم ، دون غيره ، كالمعرفة ؛ لأن التعبير بلفظ العلم

(١) الوَلْيُ : القُرْبُ والدُّنُوُّ . . . والوَلِيُّ : الاسمُ منه ، والمُحِبُّ ، والصَّدِيقُ ، والنَّصيرُ (القاموس المحيط – مادة ولي (١ / ١٧٣٢)

(٢) الناعي : الذي يأْتي بخبر الموت (لسان العرب – مادة نعا (١٥ / ٣٣٣)

(٣) والثَّائِرُ : الذي لا يبقى على شيء حتى يُدْرِك ثَأْرَهُ ، وأَثْأَرَ الرجلُ واثَّأَرَ أَدرك ثَأْرَهُ وثَأْرَ بِهِ وثَأْرَهُ طلب دمه (المرجع السابق – مادة ثأر (٤ / ٩٧)

فيه دلالة على أن هذا الأمر من المعرفة بمكان ، وفي هذا مزيد من توجيه اللوم ، والعتاب عليهم ؛ إذ العلم يتطلب معرفة كليات المعلوم ، وجزيئاته ، بخلاف المعرفة ، فإنها مقصورة على جزيئات الشيء [١]

وقوله : (ناعيه تحت المرهفات) كناية عن الخائن له ، والمحرض على قتله ، من قولهم " تَنَاعَى القوم في الحَرْبِ : نَعَوْا قَتْلاهُم ؛ ليُحَرِّضُوا على القَتْل"[٢] والكناية هنا أبلغ من تصريحه بلفظ الخيانة ، أو الغدر ؛ إذ الكناية هنا ترسم صورة في الذهن للمشهد ، والواقعة ، والسيوف القاطعة ، وهي تغتال الخليفة . والتعبير بلفظ النعي ، ينبئ عن فرط الخسة ، والتبرأ من كل القيم ، والأخلاق ، والإنسانية .

وفي قوله : (تحت المرهفات) ، والمرهفات : السيوف القاطعة [٣] تعبير بليغ يصور مدى فظاعة الموقف الذي فيه الخليفة ، والمأساة التي عاشها ، وهو يصارع الموت ، حيث تسلطت السيوف القاطعة عليه ، وهو تحتها فاقد الحيلة . والتعبير بلفظ التحتية ، وما يوحي به من معنى القصور ، والعجز ، هو الأنسب بالسياق ، والأليق بالمقام .

(١) دراسات حديده فقي إعجاز القران مناهج تطبيقية في توظيف اللغة د / عبد العظيم المطعني ص ٨٣ ، الناشر : ة ط ١ : ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم المؤلف : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ٢/٢٥٥ ، ت / عبد الحميد هنداوي ، الناشر دار الكتب العلمية سنة النشر ٢٠٠٠م .

(٣) انظر : لسان العرب مادة رهف ٩ / ١٢٨)

حسن الختام وعلاقته بالبدء :

وإنّـــي لأرْجُـــو أنْ تُـــرَدّ أُمُـــورُكُمْ إلـى خَلَـفٍ مِـنْ شَخصـِهِ لا يُغَـادِرُهْ

مُقَلِّـــبُ آرَاءٍ تُخَـــافُ أنَاتـــهُ ، إذا الأخـرَقُ العَجـلانُ خيفـتْ بَـوَادرُهْ

هذان البيتان يعدان من حسن ختام القصيدة ، ففيهما بدأ يتحدث الشاعر عن نفسه وما يريده ، ويترجاه ، ففي الكلام حسن تخلص [1] ، ومناسبة هذا الكلام لما قبله هو أنه يصور مدى انشغال الشاعر بأحوالهم ؛ حيث جاء ختم القصيدة ؛ ليدل على أن إلى جانب التأثر السريع للشاعر بالحادث الذي شاهده بعينيه ، جاء ختم القصيدة ؛ لينبئ عن أمله في أن يلي الخلافة المعتز ، دون المنتصر .

أما عن علاقة البدء بالختام : هو بيان أن هم الشاعر الأول نفسه ، ومصالحه الشخصية ، فكما أثبت البحث أن الشاعر في مطلعه الطللي يبكي نفسه أولاً ، والمجتمع من حوله ثانيًا ، فالشاعر هنا في ختم القصيدة يحاول أن يستميل عن طريق الهمس قلوب قتلة المتوكل إليه ، والخائنين له ، وذلك يظهر من خلال استعماله لضمير الذات الراجع إليه ، وضمير الخطاب الراجع إليهم ، كما أن هذا الرجاء الذي عبر به الشاعرعن نفسه يُشار به كثيرًا ، حينما يكون الإنسان في ضيق واضطراب، ويرجو أن ينقذه الله منه ، ويعينه عليه ، وينظر نظرة أمل في المستقبل .

ومن ثَمَّ فهذا المقطع الحواري في نهاية القصيدة يدل على الحزن العميق

---

(١) حسن التخلص : هو الانتقال مما شُبِّبَ الكلام به من تشبيب أو غيره إلى المقصود ، مع رعاية الملاءمة بينهما (بغية الإيضاح ، تأليف / عبد المتعال الصعيدي ٤ / ١٣٥، الناشر : مكتبة الآداب ، ط ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م) .

والرفض الشديد لما حدث للخليفة من ناحية ، وفيه إيحاء ببعض التودد ، والتقرب لقتلة المتوكل ، والخائنين له من ناحية أحرى .

والعطف بالواو في قوله: (وإني لأرجو) فيه دلالة على أن هذا غرض مستقل بذاته ، كما أن في تصدير كلامه بإن التوكيدية ، ولام التوكيد الداخلة على فعل الرجاء ، دلالة على مدى حرصه الشديد على هذا الأمر .

وقوله : (إلى خَلَفٍ مِنْ شَخصِهِ لا يُغَادِرُهْ) كناية عن ملاءمته للخليفة في جميع صفاته ، وأنه لا يختلف عنه . وفي التعبير بأسلوب النفي في قوله :(لا يغادره) ؛ للدلالة على مدى ملازمته للخليفة في صفاته ، وعدم انفكاكها عنه في جمع الأوقات وهذا هو الملائم للسياق ، والأليق بالمراد .

والبيت الأخير يصور مدى المفارقة بين صفات الشخصين ، وفي هذه المفارقة بينهما دلالة على أن الفرق بينهما واضح ، والبون بينهما شاسع ، لا يلتبس على أحد ، ومن هنا حرص الشاعر على إتيانه بألفاظ تدل على المبالغة في إثبات الصفة لكل موصوف منهما ، فقال في الأول : (مقلب أراء تخاف أناته)[1] وهو كناية عن المعتز ، وقال في الثاني : (الأخرق العجلان خيفت بوادره) [2] ، وهو كناية عن المنتصر .

ولعل البيت الثاني بما يحمل من صفات تفاضل بين الاثنين ؛ إنما جاء ؛

---

(١) والأَناةُ والأَنَى الحِلم والوقار . . .والأَناة التُّؤَدة (لسان العرب مادة أنى (١٤ / ٤٨)

(٢) (الأَخْرَقُ والأَحْمَقُ والأَرْعَنُ والأَعْجَفُ والأَسْمَنُ يقال خَرُق (المرجع السابق– مادة خرق (١٠/ ٧٣) ، (والبادِرَةُ : ما يَبْدُر مِن حِدَّتِكَ في الغَضَب . . .، يُقال : أَخشَى عليكَ بادِرَتَ ، وبَدَرَتْ منه بوَادِرُ غَضَبٍ ، أَي خَطَأٌ (تاج العروس من جواهر القاموس –مادة بدر (١٣٨/١٠)

لبيان العلة ، والسبب الداعي الذي حمله على هذا الرجاء .

وقوله :(مقلب آراء) كناية عن التعامل معها بحكمة، ودراستها بعناية ، والنظر في عواقبها ، وتفحَّصها . والجملة هنا حالية تعبر عن حال صاحبها ، ولكن نلحظ براعة الشاعر ، حينما بنى البيت على الجملة الاسمية ؛ وذلك لما فيها من دلالة على الثبوت ، والدوام ، والمعنى : أن هذه الصفة لازمة له لا تنفك عنه .

وفي التعبير باسم المفعول (مقلب) ؛ لتركيز الأمرعلى الحدث نفسه ، أما الفاعل ، فهو معروف لهم جميعًا ، وهذا أدل على المدح ، والفخر .

و(آراء) جمع ، وإن كان للقلة على زنة (أفعال) إلا أنه يدل على كثرتها، واشتهارها فيما بينهم ، وهذا هو الأنسب للسياق ، والمقام .

ونلحظ هنا مدى براعة الشاعر ، حينما قارن بين الاثنين من خلال أسلوب الشرط واختار لذلك من بين أساليب الشرط (إذا) الشرطية التي تستعمل فيما هو محقق الوقوع ، والمعنى : أن هذه الصفات محققة الوقوع ، إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره،وفي هذا دلالة على أنها تتحقق في الوقت المناسب ، والملائم لها ، وهذا فيه من الدلالة على حكمة صاحبها ما فيه .

فقوله :(إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره) تُعدُّ بمثابة القيد الذي وضعه الشاعر ؛ لإبرازالمقارنة بين صفات الاثنين ، وأن هذا هو ما أراده وعنى به من هذه المفاضلة بين صفات الاثنين .

ونلحظ أن الفعلين (تخاف ، وخيفت) جاءا على صيغة البناء للمجهول ، وفى بناء الفعلين للمجهول دلالة على أن التصوير مسلط على الأحداث نفسها ، فالمقصود الفعل ، والحدث ، لا الفاعل ؛ ولذا جاء الفعلان على صيغة المبنى

للمجهول.

ثم إن في إسناد الفعل " تخاف " ، والفعل " خيفت " إلى صفاتهم دلالة على شدة اتصاف كل واحد منهما بالصفة المنسوبة إليه .

ومن براعة الشاعر في هذا التصوير المبين لموقف الاثنين في كيفية التعامل مع الأمور ، هذه المقابلة بين (تخاف أناته) ، و(خيفت بوادره) ، فهذه المقابلة تكشف عن مدى تقابل أحوالهما، واختلافها من شخص لآخر، كما ترسم لنا الموقف بكل أحواله ، وتناقضاته ، هذا التناقض الذي يعكس الحالة المتناقضة التي عليها الاثنين وهذه الحالة المتناقضة التي تبرزها المواقف الحسية الظاهرة والجلية للجميع ، تصور الحالة المتناقضة للنفوس تجاه الشخصين .

وفى إضافة هذه الصفات إلى ضمير الغائب "الهاء" العائدة على كل واحد منهما ، يشعر بمدى تعلق كل واحد منهما بهذا الأمر ؛ ولذا كان مستحقًا لهذا الوصف الذي تعلق ، واشتهر به .

ملاحظات عامة على القصيدة :

الحمد لله الذي به تتم الصالحات ، وتعظم القربات ، والصلاة والسلام على خير خلق الله ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن والاه .

وبعد ، ، ،

بعد هذه الرحلة التي أتمنى أن أكون قد وفقت فيها . ولو بعض الشيء . يمكن إجمال بعد الملاحظات العامة على هذه القصيدة ، فيما يلي : .

١- جاءت القصيدة ذات وحدة عضوية ، مَطْلعاً ، ومَقْطَعاً، بداية ، ونهاية، متوحدة في غرضها، فالقصيدة تُجسُّ مشاعر الشاعر الحزينة بصدقٍ ، وإخلاص ، حتّى إنّ هولَ الصدمة على الشاعر لم يجعله يُفكّر فيما قد تُورِدُهُ قصيدته هذه من موارِدِ الهلاك.

٢- تميرزت هذه القصيدة عن أغلب قصائد الرثاء بأنها جاءت بمطلع ذي طابع طللي ، وأن الشاعر لم يعن بذكر اسم المرثى ، بقدر ما عنى بذكر صفاته ، وما خلفه في المجتمع ، والمكان من حوله ، بعد فقده ، كما أن الشاعر في قصيدته هذا لا يرثي المرثى ، بقدر ما يرثي نفسه ، والقيم التي خلفها الخليفة ،بعد فقده .

٣- تنعكس على القصيدة دلالة السرد ، والخطاب معًا ؛ ولذا فقد أكثر الشاعر في استخدام حرف العطف (الواو) الذي جاء في نحو خمس وأربعين مرة ، وفي هذا دلالة على أن البحتري يريد أن ينقل لنا الحادثة ، وكأنها حكاية تسرد على المتلقين ، في حين أننا نجد أن حرف الفاء لم يأت سوى خمس مرات فقط ، والحرف (ثم) لم يستعين به الشاعرعلى الإطلاق في هذه القصيدة ، وفي هذا

دلالة على مدى تزاحم الأحداث ، ووقعها الشديد على نفسه ؛ مما جعل ليس هناك سبيل إلى التراخي ، والتماطل في تصويرها ، والحديث عنها.

٤- ونجد دلالة السرد والخطاب كذلك في أفعال المضارعة ، أو ما هو في معناها، التي استعملها الشاعر في القصيدة بكثرة ؛ لتنقل لنا الحادثة من الماضي الغابر إلى الحاضر المشاهد ، وكأنها تقع الآن على مرأى ، ومسمع من الجميع ؛ ليشاركه الجميع إحساسه ، ويتوجع لوجعه ، ويدرك مدى حماقة ، ودناءة مرتكبي هذا الجرم .

٥- استخدم الشاعرالكثير من الألفاظ المستعملة في معانيها الحقيقية ؛ لتوضيح أفكاره، ونقل المعاني إلى القراء بوضوح ، وهي ألفاظ تحس فيها بالقوة ، والعنف ، ولها نبرة صوتية شديدة الإيقاع ، ومن ثَمَّ جاءت معبرة عن مشاعر الغضب الشديدة في نفسه جراء ما حدث للخليفة ، هذا بالإضافة إلي حرف الراء الذي استعمله الشاعر بكثرة ، فقد جاء فيما يزيد عن ثمانين مرة ، فلا تجد بيتًا في القصيدة إلا وفيه كلمة ، أو أكثر اشتملت على هذا الحرف ، وهذا الحرف مع تكراره تحس بانحباس في الصوت بعض الشيء ؛ مما خلع على القصيدة جو جنائزي كثيف . ويبقى حرف الهاء الذي يحمل الآهات ، ويدل على الحزن العميق الذي يدب في نفسية البحتري ، والذي جاء في نهاية كل بيت ، فجعل الصوت بعد انطلاقه قوي في بداية البيت ، ينخفض في نهاية البيت فجأة ، وهكذا حتى نهاية القصيدة الصوت يعلو ، ويخفت مرة تلو الأخرى ، وكأنه يحكى ما وصل إليه الشاعر من شدة التأثر ، والحسرة ، والتعب .

٦- اختيار الشاعر لألفاظه ، وترتيبها بعناية فائقة ، وملاءمتها للمعاني التي يريد أن يبثها في نفوس المتلقين يُعدُّ سمة واضحة في القصيدة ، ويدلل على مدى قدرة الشاعر على صياغة الألفاظ المعبرة ، واستخدم الشاعر كذلك عددًا من

الصورالفنية ، ولكنها جاءت بصورة قليلة ؛ بهدف توضيح أفكاره للقارئ ، ومن الصورالتي استعملها الشاعرالكناية ، فقد جاءت في نحو عشر مرات ، وهي تُعدُّ أكثر الصور الفنية استعمالاً ؛ وذلك لخدمة الغرض المروم عند الشاعر ؛ إذا الكناية تقدم الدعوي بدليلها ،وهي تُعدُّ وسيلة من وسائل التوكيد الفنية ، كما أنها تُعدُّ أقرب الصور الفنية إلى الحقيقة ، بل إنها لا تمانع من إرادة المعنى الحقيقي والاستعارة ، فقد جاءت في نحو ست مرات ، وأما التشبيه ، فقد جاء في نحو أربع مرات فقط ، كما إن التنويع بين أسلوبي الخبر ، والإنشاء أضفى حركة ، وحيوية على النص، وهذا التنوع الأسلوبي ، جاء عفو الخاطر.. مما يدل على شاعرية الشاعر ، وقدرته على الفذة على توظيف التراكيب ؛ لخدمة غرضه المروم.

٧- اعتمد الشاعر على المباشرة، ورفع التكلف في معانيه ؛ مما جعله ينأى عن كثير من المحسنات البديعية ، وإن كان أتى ببعض منها إلا إنها جاءت عفو الخاطر دون تكلف ، أو إعمال للفكر ، ومن هذه المحسنات التي استعملها الشاعرالجناس فقد جاء في نحو ثلاث مرات ، والمقابلة ، فقد جاءت مرتين ، والتضاد ، فقد جاء مرتين ، وأما الاحتراس ، والتتميم ،وحسن التخلص، فقد جاء كل منهم مرة واحدة .

٨- استطاع البحتري في قصيدته هذه أن يجمع بين أسلوبه البدوي الرصين ، وبين الأخذ ببعض مظاهر الحضارة العباسية التي عاش فيها ، وكان ذلك واضحًا من خلال ألفاظه التي تدل على تأثره بالبيئة الصحراية ، ومن ذلك استعماله للفظة الوحش ، وهو ما لا يستأنس من الدواب ، ومن الألفاظ التي تدل على تأثره بالبيئة العباسية بما فيها من حضارة ، استعماله للفظتي (أستار، وستائر) وما فيهما من دلالة على أثار الحضارة ، والزينة العباسية .

٩- اشتملت القصيدة على بعض الحكم التي بثّها البحتري في نفوس المتلقين ، ومن ذالك قوله : أن عزيز القوم من عز ناصره ، وأن الدنيا لا تدوم ،ولا يأمن مكرها أحد ، فلا يطيل الباقي عمر الماضي ، وهذا كله مما يدل على خبرته الحياتية ، وثقافته الدينية .

١٠- وقف البحث على بعض ملامح شخصية البحتري التي تنبثق من خلال ايحاءته اللفظية ، ودلالتها النفسية ، ومن ذالك أنه لم يكن راضي النفس ، ولا مطمئن المشاعر ، وإنما يبدو في أغلب الأحيان ، ساخطاً على الحياة ، وضيقاً مما حوله ، وقلقاً ، وخائفاً من الأيام ، ويبدو معتداً بنفسه ، واثقاً من شجاعته .

مراجع البحث :

- القرآن الكريم ، تنزيل من حكيم عليم .
- أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية ، د / نجاة عبد العظيم الكوفي ، ط : دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م .
- أساس البلاغة ، للزمخشري ، دار النشر: دار الفكر ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
- أسرار البلاغة ، للشيخ عبد القاهر ، ت / محمود محمد شاكر ، الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار المدني بجدة ، ط١ : ١٣١٢ هـ / ١٩٩١م .
- الإعجازالبلاغي (دراسة تحليلية لتراث أهل العلم) ، تأليف د / محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبه ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- الأعلام للزركلي ، الناشر : دار العلم للملايين بيروت ـ لبنان ط٢ : ١٩٩٧م.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي ، الناشر : دار الكتاب الحديث الكويت (بدون تاريخ) .
- البحتري بين نقاد عصره ، تأليف / صالح حسن اليظى ، الناشر : دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط١ : ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣م .
- بغية الإيضاح ، تأليف / عبد المتعال الصعيدي ، الناشر : مكتبة الآداب ، ط ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م .
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، وأثرها في الدراسات البلاغية، د/ محمد محمد أبو موسي ، الناشر : مكتبة وهبة ،ط٢ : ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٩م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، د / فاضل السامرائي ، الناشر : دار عمار ، ط٢ : ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م .
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، د/منير سلطان– منشاة المعارف بالإسكندرية.

- تاج العروس من جواهر القاموس ، المؤلف : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ، الملقّب بمرتضى ، الزَّبيدي ، تحقيق / مجموعة من المحققين ، الناشر : دار الهداية .
- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني ، للدكتور / شوقي ضيف ، ط : دار المعارف ١٩٧٧م .
- تاريخ الخلفاء ، المؤلف : عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ت : محمد محي الدين عبد الحميد ، الناشر : مطبعة السعادة – مصر ، ط١ : ١٣٧١هـ/١٩٥٢م
- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تأليف / محمد فريد بك ، الناشر : دار النفائس . بيروت .
- التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه ، د/بسيونى عبد الفتاح فيود ، مطبعة الحسين الإسلامية .
- التوقيف على مهمات التعاريف ،المؤلف : محمد عبد الرؤوف المناوي، ت : د. محمد رضوان الداية ،الناشر: دار الفكر المعاصر ، دار الفكر – بيروت ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ .
- الجنى الداني في حروف المعاني ، اسم المؤلف: بدر الدين حسن بن أم قاسم المرادي المصري ، ت/ فخر الدين قباءه ، والأستاذ / محمد مدين فاضل ، ط : دار الكتب العلمية بيروت ، ط١ : ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م
- خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د / محمد محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبه ، ط٨: ١٤٣ هـ / ٢٠٠٩م .
- دراسات حديده في إعجاز القران مناهج تطبيقية في توظيف اللغة ، تأليف / د / عبد العظيم المطعني ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط ١ : ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م

- دراسة في البلاغة والشعر ، تأليف د / محمد محمد أبو موسى ، الناشر: مكتبة وهبة ط١: ١٤١١ هـ / ١٩٩١م.
- دلائل الإعجاز ، للإمام عبد القاهر ، ت / محمود محمد شاكر ، الناشر : مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ط٣ : ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م .
- دلالات التراكيب ، تأليف أ.د/ محمد محمد أبو موسي ، الناشر : مكتبة وهبة ط ٢ : ١٤٠٩هـ / ١٩٨٧م .
- الدولة العباسية للشيخ محمد الخضري، ط: الاستقامة بالقاهرة .
- ديوان الأخطل ، شرحه / مهدي محمد ناصر الدين ، الناشر : دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، ط١ : ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ديوان البحتري ، ت / حسن كامل الصيرفي ، الطبعة الثالثة طبعة دار المعارف .
- ديوان الخنساء طبعة : بيروت .
- ديوان دريد بن الصمة الجشمي ، تحقيق وشرح وجمع / محمد خيري البقاعي ، طبعة : دار قتيبة .
- ديوان عنترة بن شداد، ت / بدر الدين حاضري ، محمد حمامي الناشر : دار الشرق العربي ، بيروت ـ لبنان ، ط١ : ١٩١٢ هـ / ١٤١٢م .
- ديوان لبيد بن ربيعة، دار صادر ـ بيروت .
- ديوان مجنون ليلى ، شرح عبد المتعال الصعيدي ، ط٢ : دار الطباعة المحمدية بالأزهر ـ القاهرة .
- ديوان المهلهل بن ربيعة ، طبعة : دار صادر بيروت .
- ديوان النابغة الذبياني ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : دار المعارف بمصر .

- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ،ت / أحمد محمد الخراط ،الناشر : مطبوعات : مجمع اللغة العربية بدمشق (بدون تاريخ)
- زهر الأداب وثمر الألباب ، المؤلف : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني ، ت : أ. د / يوسف على طويل ، دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، ط١ : ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لعبد الحي بن أحمد العكري الدمشقي ، دار النشر : دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان) .
- شرح أحاديث من صحيح البخاري (دراسة في سمت الكلام الأول) ، د / محمد محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبه ، ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م .
- صحيح البخاري ، ت : محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر : دار طوق النجاة الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق ، ت / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط : دار الجيل – بيروت ، ط الخامسة ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١م .
- الفروق اللغوية ، لأبي هلال العسكري ، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت ط ١ : ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م .
- الفن ومذاهبه للدكتور / شوقي ضيف ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٤هـ
- فيض القدير شرح الجامع الصغير ، اسم المؤلف: عبد الرءوف المناوي ، دار النشر : المكتبة التجارية الكبرى – مصر ، ط١ : ١٣٥٦هـ .
- القاموس المحيط ، اسم المؤلف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، دار النشر : مؤسسة الرسالة – بيروت .
- قراءة في الأدب القديم د / محمد أبو موسى ، الناشر : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٩٩٨م .

- الكامل في التاريخ ، تأليف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني،، ت : عبد الله القاضي ، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ط٢: ١٤١٥هـ .
- كتاب الصناعتين فى الكتابه والشعر ، لأبى هلال العسكرى، ت/ مفيد قميحه ، ط٢، دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م)
- لسان العرب لابن منظور ، دار صادر – بيروت الطبعة الأولى (بدون تاريخ)
- المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، لابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محرم ، ت/ أحمد الحوفى ، د/ بدوى طبانة طبعة نهضة مصر – القاهرة – ١٣٦٩ هـ – ١٩٥٩ م .
- المحكم والمحيط الأعظم ، المؤلف : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي ، ت / عبد الحميد هنداوي ، الناشر : دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م .
- مستتبعات التراكيب بين البلاغة القديمة والنقد الحديث ، د / عبد الغني محمد بركة ط :دار الطباعة المحمدية ١٩٨٩م .
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ،المؤلف / أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي ، الناشر : المكتبة العلمية – بيروت .
- مطلع القصيدة العربية ودلالته التنبيه ، د / عبد الحليم حفني ،ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م .
- المعجم الوسيط ، المؤلف / إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر، محمد النجار ، ت / مجمع اللغة العربية ، دار النشر : دار الدعوة .
- معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع ، تأليف / عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي ، ت / مصطفى السقا ، ط : عالم الكتب بيروت ، ط٣ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .

- ديوان لبيد بن ربيعة ، دار صادر ـ بيروت .
- مفتاح العلوم للإمام أبي يعقوب السكاكي ، ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية (بيروت ـ لبنان) ، ط٢ : ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .
- الموازنة ، للآمدي ،ت : الشيخ / محمد محي الدين ، ط : دار السعادة القاهرة
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، تأليف ابي عبد الله محمد بن عمران المرزباني ، ت / محمد حسن شمس الدين ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط١ : ١٣١٥ هـ / ١٩٩٥م .
- من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة ،تأليف : د / عبد الفتاح لاشين ، الناشر دار المريخ للنشر ـ الرياض " ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م .
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء ، وثم) ، للدكتور / محمد الأمين الخضري ، الناشر : مكتبة وهبة ، ط١ : ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- من حديث الشعر والنثر ، للدكتور / طه حسين ، ط : دار المعارف القاهرة .
- من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، تأليف د /فتحية فرج العقدة ، ط الأمانة :١٤١٤ هـ / ١٩٩٣م .
- نظرات أدبية د / محمد رجب الفيومي ، ط : زهران القاهرة ١٩٧١م .